

اللغة والمجتمع

رأى ومنهج

بقلم الدكتور محمود السمران

- ١ -

وظيفة اللغة

(١) يحاول علم اللغة العام أن يجد طرقا لدراسة اللغة باعتبارها ظاهرة انسانية عامة، طرقا تصلح لدراسة جميع الاشكال الكلامية التي تصطنعها الجماعات البشرية على اختلافها، وهذه الطرق لن تكون هي نفسها دراسة للغة مفردة من لغات البشر، سألها أو حاضرها أو قادمها، إن هذه الطرق شيء أشبه بالألف باء الصوتية الدولية، فبذلك الألف باء لا يقصر استعمالها على لغة بعينها، ولكنها قد قصد من وضعها أن تكون وسيلة صالحة لتمثيل أي لفظ في أي لغة، فهذا الرمز أو ذلك من رموزها لا يمثل هذا الصوت أو ذلك في هذه اللغة أو تلك، ولكنه يمثل « نوعا » صوتيا عاما.

والمبدأ الذي يجب أن يراعى في رسم تلك الطرائق المؤدنة بدراسة اللغة تلك الدراسة هو المحافظة على ما يدعو به دي جرون اللغوي الهولندي « استقلال علم اللغة »، فلعلم اللغة موضوعه الفرد، وإن « موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبرة في ذاتها ومن أجل ذاتها » كما يقول فرديناند دي سوسير في « محاضرات في علم اللغة العام »، ولذلك يجب أن تكون مناهج علم اللغة ووسائله وأسسها « الفلسفية »

General Linguistics	(١)
International Phonetic Alphabet	(٢)
De Groot	(٣)
The autonomy of Linguistics	(٤)
Ferdinand de Saussure : Cours De Linguistique Générale, Quatrième édition, Payot, Paris 1949, p. 317	(٥)
"la linguistique a pour unique et véritable objet la langue envisagée en elle-même et pour elle-même."	

مستمدة من طبيعة موضوعه ، ومتلازمة وإيهام . نعم انا لنستعين بعلوم أخرى في تكويننا لنظرية عامة في اللغة ؛ ولكن فرق بين هذا وبين أن ننظر الى اللغة من خلال مناهج علوم أخرى ، أو أن ننظر اليها على أنها فرع من علم آخر .

(٢) لقد سبق أن قامت الدراسات اللغوية على أساس أنها فرع من الفلسفة ، أو فرع من علم النفس ، أو فرع من الاثروبولوجيا الاجتماعية ، أو ... الخ . وخلاصة ما أدت اليه هذه الدراسات هو اعتبار اللغة وسيلة للتعبير عن الافكار والعواطف والرغبات أو وسيلة لتوصيل الأفكار ... الخ . وان « هنري سويت » يقدم نوعا من النظرية الكلاسيكية في اللغة اذ يقول : « ان اللغة هي التعبير عن الافكار بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة في كلمات »^٢

وادوارد ساپير يذهب نفس المذهب اذ يقول : « اللغة وسيلة انسانية خالصة ، وغير غريزية اطلاقا لتوصيل الأفكار ، والانفعالات ، والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة ارادية »^٣

ولا يزال بعض المحدثين من علماء اللغة ينظرون الى اللغة هذه النظرة ، على الرغم من دراستهم لـ « الكلام الحي » ، ومن استعانتهم بعلم الاجتماع في دراسة اللغة .

ولكن « الأفكار » و « الانفعالات » و « العواطف » والرغبات الخ مصطلحات منقولة من دراسات أخرى غير لغوية في أصلها . ولو جاز أن « الكلام » في بعض استعمالاته تعبير عن « الفكر » فانه ليس كذلك في جميع استعمالاته أو في معظمها ؛ فليس ثمة توصيل للأفكار أو تعبير عن أفكار في لغة التحيات ، ولغة التأديب ، ولغة التدريب الرياضي والعسكري مثلا ، كما سنرى . ان أصحاب هذه النظرية في اللغة ، على اختلافهم ، يرون أن :

- (١) Social Anthropology
- (٢) Henry Sweet : New English Grammar : "Language is the expression of ideas by means of speech-sounds combined into words."
- (٣) Edward Sapir : Language, An Introduction to the Study of Speech ; New York, Harcourt, Brace and Company, 1921, P. 7 :
"Language is a purely human and non-instinctive method of communicating ideas, emotions and desires by means of a system of voluntarily produced symbols."

ويقول ساپير في ص ٢١ من نفس الكتاب :
"Language, as a structure, is on its inner face the mold of thought."

١ - الوظيفة الأساسية للغة هي أنها وسيلة من « الاتصال » أو « التوصيل »^١ ، أو « النقل »^٢ ، أو « التعبير »^٣ عن طريق « الأصوات الكلامية »^٤ .

ب - وأن ما « توصله » اللغة ، أو « تنقله » أو « تعبر عنه » هو الأفكار ، والمعاني ، والانفعالات ، والرغبات ، و ... الخ ، أو « الفكر »^١ بوجه عام .

ذهب هذا المذهب كثير من علماء اللغة ، لا سيما أولئك الذين تقوم دراساتهم للغة على أساس « منطقي »^٢ ، أو « فلسفي » أو « نفسي » ، أو « رياضي » ، أو « آلي » . يرى هؤلاء أن اللغة لا تعدو أن تكون مرآة ينمكس عليها الفكر ، أو أداة عاكسة للفكر ، أو « مستودعا » للفكر المنعكس ، أو وسيلة لتجسيم الفكر أو التعبير عنه ، الى أشباه هذا .

Communication	(١)
Transmission	(٢)
Expression	(٣)
Speech - sounds	(٤)
Ideas	(٥)
Thought	(٦)

(٧) ليس هذا الكلام قاصرا على اللغويين القدماء من يونان ورومان ، وعلى لغويي العصور الوسطى ، أولئك الذين خضعوا في تفكيرهم اللغوي لمنطق أرسطو وبعض التصورات الفلسفية ، ولكنه يصدق كذلك على كثير من المناطق الحديثة الذين تعرضوا للغة ، ومن هؤلاء جفونز Jevons الانجليزي فقد قال في كتابه :

Elementary Lessons of Logic, p. 257 ان اللغة تستخدم ثلاثة اغراض :

(١) أنها وسيلة للتوصيل (٢) أنها تساعد آلي للتفكير (٣) أنها وسيلة للتسجيل والرجوع اليه . ويقول جفونز : « كانت اللغة في نشأتها الاولى تستعمل في الغرض الاول على وجه الخصوص ان لم يكن استعمالها فيه وحده » . وقد ناقش الأستاذ يسپرسن Otto Jespersen في كتابه

Mankind, Nation and Individual from a Linguistic Point of View, P.P. 6-7

راى جفونز فلاحظ أن الاستعمال الثالث للغة في رأى جفونز لا يبدو أن يكون فرعا ثانويا من الاستعمال الاول وذلك « لانه عندما يدور الإنسان مذكرة عن شيء ما يرجع اليها من بعد ، ومن ثم يحضر في ذهنه أفكاره السابقة ، فهذا أمر لا يختلف في جوهره عن الغاية الاولى للغة . فالإنسان عند ما يقرأ مذكراته الماضية يكون هو نفسه ويكون شخصا آخر في نفس الوقت » (ص ٦) أي أنه عندما يقرأ الإنسان مذكراته الماضية يكون ثمة « توصيل » .

= ويقرر سبيرسن (ص ٧) أنه لا يستطيع أن يتبع جفونز في قوله أن اللغة في نشأتها الأولى كانت تستعمل في الغرض الأول - وهو كونها وسيلة للتوصيل - على وجه الخصوص أن لم يكن استعمالها فيه وحده . وكان سبيرسن ، قبل مناقشته رأى جفونز هذا ، قد عرض رأيا شبيها به لهرمان بول Hermann Paul ورفضه . قال سبيرسن (ص ٥) : « ولئن تقارب أبدا فهما تماما لطبيعة اللغة ما حصرا انتباهنا في وظيفة العقلية بوصفها وسيلة لتوصيل الفكر . ولكن هذه النظرية الجزئية قد رأها (جماعة من) أبرز الباحثين . فهرمان بول في خطابه البارع عن Völker-psychologie (الذي ألقاه في ميونيخ سنة ١٩١٠) يقول عن غرض اللغة : « أن وظيفتها الأصلية أن تكون في جميع الأحوال وسيلة لتوصيل Imparting شيء من الأشياء » . لا ، ما هذا بوظيفتها الأصلية وما هو بوظيفتها الحالية . أما فيما يتعلق بنشأة اللغة فقد حاولت في كتابي Progress in Language ثم أحدث من هذا في القسم الأخير من كتابي Language ، حاولت أن أبين أننا نبدأ أن نحسد ليس إلا ماذا كانت نشأة اللغة عند ما نرى ، بعد اقتفاء تاريخها إلى الوراء إلى أقصى ما نستطيع ، أن اللغة المبكرة كانت أي شيء إلا عقلية Intellectual ، أنها كانت حفا منزلا وسطا بين النساء والكلام ، أنها بمجموعة من الأصوات الطويلة والتي تكاد تكون عارية عن المعنى كانت تعمل كمستفسر للاحاساس استيفية أكثر من عملها على أن تكون تعبيرا مفهوما عنها ، وأنها لم تكن في أي حال من الأحوال تعتبر في أساسها وسيلة لاختيار الآخرين هذا الشيء أو ذلك ، ولو أنها ، بطريق غير مباشر ، قد صارت في الواقع آخر الأمر إلى أن تكون وسيلة للتوصيل . »

أما الغرض الثاني من أغراض اللغة الثلاثة في رأى جفونز - وهو أنها مساعد إلى للتفكير - فقد قال عنه سبيرسن (ص ٧) : « من الثابت أن امتلاك لغة من اللغات يساعد حقا التفكير الإنساني مساعدة جوهرية . ولكن علينا من ناحية أخرى ألا ننسى أن جملة من أعمق المفكرين طالما شكوا من أن اللغة التقليدية كانت في حالات عاقبة لهم عن التفكير في شيء إلى أعمق أعماقه . فهي بغيردائها المحدودة . وبصيفها الثابتة قد أكرهت الفكر على أن يسير في سبيل مطروقة ، حتى أنهم اضطروا إلى متابعة السير في خطوط قديمة ، وانبهوا إلى أن يكون تفكيرهم شديد الشبه بتفكير أفوام آخرين من قبلهم . »

وقد خلاص سبيرسن من مناقشته رأى جفونز بقوله أنه لا يستطيع أن يتبعه في اعتباره هذه الغايات العقلية الثلاث هي الغايات الوحيدة التي تستعمل من أجلها اللغة فاستعمل اللغة في هذه الغايات لا يتحقق إلا في حالة المفكرين من الرجال والنساء ، ولا يتحقق عند هؤلاء إلا في أسمى لحظاتهم الأكاديمية (ص ٧) .

لصديقي وزميلي الدكتور عبدالرحمن محمد أيوب ، المدرس بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، ترجمة لكتاب سبيرسن هذا ظهرت سنة ١٩٥٤ بعنوان « اللغة بين الفرد والمجتمع » (ملنزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة) . ولكننا لم نشأ أن نأخذ عن الترجمة بل أخذنا عن الأصل مباشرة ، فهذه الترجمة « بتصرف » ، وهذا التصرف يندرج تحته اختصاص كلام المؤلف أحيانا ، وإطالته أحيانا ، وكتابة بعض الفصول من جديد في ضوء ما كتبه المؤلف أحيانا أخرى

(٣) ولكن هل يجوز أن يعد هذا تعريفا صادقا للغة ؟ ان دراسة الأنواع المختلفة للوظائف الكلامية ^١ في لغة من اللغات « الحية » لا تؤيد أمثال التعريفات السابقة للغة ، ولا توحى بها .

ولقد كان مالمينوفسكى ^٢ العالم الانثروبولوجى فضل كبير في تغيير النظر إلى اللغة فقد أدرك عندما كان يدرس بعض المجتمعات التي جرى الاصطلاح على تسميتها بالمجتمعات « البدائية » أو « الفطرية » أو « الوحشية » ، أن دراسته أن تصح دون معرفة الوظيفة التي تقوم بها اللغة في المجتمع . ومن هنا كانت نظريته الهامة في اللغة ، والتي كانت بين عوامل تطور النظر إلى علم اللغة . وصل مالمينوفسكى بعد دراسته لأمثال هذه المجتمعات إلى أن وظيفة اللغة ليست أنها مجرد وسيلة للتخاطب أو للتوصيل ؛ بل وظيفتها هي أنها حلقة في سلسلة النشاط الانساني المنظم ، هي أنها جزء من السلوك الانساني ، أنها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر . واستعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصرا على الجماعات

لتكون مفهومة لدى القارئ العربي . ثم ان التعليقات التي اضافها الدكتور أيوب - وهي في جملتها تعليقات قيمة نيرة تبسر فهم الاصل على القارئ العربي تسيرا كبيرا في معظم الأحوال - قد كتبت في الأغلب مع الاصل دون فصل أو تنبيه ، ففدا من العسير أن تعرف أين المؤلف وأين المعلق . وقد كان يسرا على المترجم أن يضع تعليقاته في الهامش مع النص على أنها من صناعته حتى لا تختلط مع التعليقات الأصلية المؤلف ، كما كان عليه أن يشير إلى النصوص التي اختصرها ، وإلى تلك التي أطلها حتى يكون القارئ على بينة . نرجو أن يتدارك الدكتور أيوب هذه المسائل في طبعته القادمة لهذه الترجمة .

وقد ظهر سنة ١٩٥٥ كتاب لصديقي وزميلي الدكتور تمام حسان ، المدرس بكلية دارالعلوم بجامعة القاهرة ، بعنوان « مناهج البحث في اللغة » ، (ملنزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة الرسالة ، القاهرة) ، وقد عرض رأى سبيرسن في وظيفة اللغة في الفصل الذي كتبه عن « اللغة والكلام » (انظر بوجه خاص الصفحات من ٤٥ إلى ٤٥ من كتاب الدكتور تمام) .

(١) Types of speech - function (١)

(٢) Bronislaw Malinowski انظر الملحق الذي كتبه لكتاب

« معنى المعنى » The Meaning Of Meaning من تأليف العالمين التفسيريين الانجليزيين :

C.K. Ogden و I.A. Richards

Malinowski, op. cit., p. 312 (٣)

"In its primitive uses, language functions as a link in concerted human activity, as a piece of behaviour. It is a mode of action and not an instrument of reflection."

« البدائية » بل انه ليلاحظ في أرقى الجماعات تمدنا .

واليك أنواعا من وظائف الكلام تبين بجلاء أن الوظيفة الأساسية للغة ليست كونها ضربا من توصيل الأفكار و . . . الخ . وأول ما نذكره من هذا

١ - « المونولوج » (الكلام الانفرادي) بصوره المختلفه ، كالتقراء

الانفرادية بصوت عال ، وكتدوين الملاحظات التي لا يقصد بها الا الكاتب

نفسه . والمونولوج يعرف أحيانا : « تحديث الانسان نفسه » ٢ ، أو

« التفكير بصوت مرتفع » ٣ . ان المرأة المصرية عند ما تخلو الى نفسها

— سواء أكانت تقوم بعمل يدوي أم لا — وتشد الأسماع الحزينة ،

والنثر المسجوع ، باكية من فقدتهم من الاحباب ، لا ترمى الى « نقل »

احساسات أو « أفكار » ، بل تستعمل اللغة بقصد التنفيس والتفريغ عن

آلامها وأحزانها ، وغريب كل الغرابه أن يرى « ساپير » أن هناك حتى

في هذه الوظيفة الكلامية ألا وهي المونولوج ، توصيلا للفكر ، يقول :—

(المتكلم والسامع هنا محققان في شخص واحد يمكن أن يوصف بأنه

ينقل الأفكار الى نفسه .) ٤

ب — ومن أنواع الوظائف الكلامية التي لا نجد فيها نقلا للأفكار ، أو شيئا

يمكن أن ينقل ، كثير من صور استعمال اللغة فيما يسمى بالسلوك

الجماعي ٥ . فاصطناع اللغة في الاجتماعات الدينية كالصلاة ، والدعاء ،

ومخاطبة الله أو « المعبود » أو أية كائنات أخرى مقدسة ، أبعد من أن

بعد نقلا للفكر .

ج — وكذلك فإن ملاحظة استعمال اللغة في المخاطبات الاجتماعية التي لا تستهدف

غاية ، مثل لغة التحيات ولغة التأدب ، والكلام عن حالات ظاهرة كالجوع ،

Monologue	(١)
talking to one's self	(٢)
thinking aloud	(٣)
as releaser of forces	(٤)
Language, P. 18	(٥)
Choric Behaviour	(٦)

تؤيد وجهة النظر التي ترى أن تبادل الكلمات يمكن أن يكون غاية في

نفسه . وهذا الاستعمال للغة قائم في الجماعات الوحشية والمتقدمة على

السواء ، وهو مائل في جميع اللغات دون خلاف . هذا الاستعمال للغة

هو في أساسه صورة من صور العمل الاجتماعي ، ووسيلة من وسائله ،

ذلك لأن كل كائن بشري يجد في نفسه الميل الى الاجتماع بسواه ،

والاستمتاع بصحبة غيره ، والنفور من العزلة الصامتة ، والكلام أقرب

مستلزمات تحقيق هذا الميل ٦ .

٥ — ومن الوظائف التي تؤديها اللغة مما لا شأن له اطلاقا بتوصيل الفكر أو

التعبير عنه ، أنها كثيرا ما تتخذ بين الكبار والصغار على السواء ، وسيلة

الى اللعب بالأصوات ، والى التلذذ والانتشاء والسرور . فنحن كثيرا

ما نردد أصواتا وكلمات غير قاصدين الا المتعة بأصواتنا ، والانتشاء

بلفتنا ، ودون أن يكون لدينا ما هو جدير بالسماع . وقد عبرت عن

هذه الحقيقة تعبيرا بارعا « مدام دي ستايل » ، ولو أن كلامها كان

مقصورا على اللغة الفرنسية ، وهو لا شك صادق على كل لغة من لغات

الأرض دون أن يمنع هذا من احتمال تحققه في الفرنسية بطريقة أحذق ،

وبدرجة أكبر ٧ .

(١) انظر قول مالىونفسكى ص ٣١٠ ن.

"Speech is the necessary means of communion; it is the one indispensable instrument for creating the ties of the moment without which unified social action is impossible."

وترجمته : « الكلام هو الوسيلة الضرورية للتشارك ، انه الآلة الفريدة التي لا غنى عنها لخلق روابط اللحظة ، هذه الروابط التي يستحيل بدونها قيام العمل الاجتماعي الموحد . »

(٢) انظر كتاب سبوسن السابق ص ٨٧ . وقد نقل سبوسن كلام مدام دي ستايل

عن Mme de Staël عن Gerber, Sprache als Kunst, I. 79 . تحدثت مدام دي ستايل

عن اللغة الفرنسية قائلة : « انها ليست كما هي عند غرنا مجرد وسيلة لتوصيل

أفكارها واحساساتها ، وشئونها ، ولكنها آلة يجب الانسان أن يلعب بها ، وهي تحرك

النفس كالوسيقى عند أقوام ، والخمور القوية عند آخرين . »

"elle n'est pas seulement comme ailleurs un moyen de communiquer ses idées, ses sentiments et ses affaires, mais un instrument dont on aime à jouer et qui ranime les esprits comme la musique chez quelques peuples et les liqueurs fortes chez quelques autres".

٥ - ومن ذلك أن اللغة كثيرا ما تستعمل لاختفاء أفكار الإنسان ١ كما يحدث أحيانا في لغة السياسة وغيرها (انظر شيئا من هذا فيما يلي بعنوان « اللغة والحياة السياسية » وبمعنوان « الكلام المحرم ») وكما يحدث أحيانا في لغة اللصوص والخارجين على القانون بصفة عامة .

وهكذا نرى أن تلك النظرية الكلاسيكية في اللغة التي تقصر وظيفتها على توصيل الفكر أو التعبير عنه ، نظرية لا يمكننا من أن نحلل جميع أشكال « السلوك الكلامي » ٢ ، وأصبح منها وأدق أن ننظر إلى اللغة على أنها « وظيفة اجتماعية » ٣ ، على أنها « طريقة من العمل » ٤ ، فما من شك في أن مما يعيننا على فهم طبيعة اللغة وجوهرها حق الفهم أن ننظر إلى الدور الذي تقوم به في حياة الفرد ، وفي حياة الجماعة التي يؤلف بين أفرادها الحديث بلمغة مشتركة ، وفي حياة النوع الانساني عامة .

(١) ينسب إلى تاليران Talleyrand الفرنسي تلك العبارة المشهورة وهي أن اللغة كائنة لتخفى أفكار الإنسان ، وقد حسن هذه العبارة Søren Kierkegaard بقوله ان اللغة يستعملها كثير من الناس لتخفى فقرهم الى الأفكار .

وواضح ان عبارة تاليران لا يجوز أن تكون تعريفا لوظيفة اللغة ، فما ذكره ليس الا استعمالا واحدا من استعمالاتها الكثيرة . أما عبارة كيركجارد فليس فيها ما في عبارة تاليران من تعميم فهي تشير الى استعمال خاص للغة غير متضمنة ان هذا هو الاستعمال الوحيد لها .

Speech Behaviour	(٢)
Social Function	(٣)
Mode of Action	(٤)

دراسة الوظيفة الاجتماعية للغة

هذه الوظيفة الاجتماعية للغة كيف يتسنى درسها ؟

(١) ان الطرق التي اقترحت للقيام بهذه الدراسة تختلف باختلاف المدارس اللغوية . وسنحاول فيما يلي أن نرسم خطوط طريقة يرتضيها كثير من علماء اللغة في إنجلترا خاصة . وهذه الطريقة صالحة للتطبيق على أية لغة من اللغات « الحية » لدراستها من الناحية « الوصفية » ٥ ، أما دراسة لغة من اللغات « الميتة » ، أو دراسة مرحلة أو أكثر من تاريخ لغة من اللغات فلذلك مناهجه الخاصة .

١ - هذه الطريقة تعد الكائن البشري مركز دراسة اللغة ، ولا تعد ذلك المركز بعض العلاقات الرياضية أو الآلية أو المنطقية ، أو ما يشبه هذامما تنقسم به الدراسات اللغوية القائمة على أساس فلسفي أو منطقي ، أو نفسي .

هذه الطريقة تتخذ الكائن البشري نقطة البدء في دراستها للغة . ولكن كيف تستقي مادة دراستها ؟ هل تسجل أحاديث كل شخص في الجماعة التي تتكلم بلمغة مشتركة ؟ ان هذا على ما فيه من مشقة وضياح للوقت سيؤدي الى خلط كثير . هل تسجل كيفما اتفق كلاما يصدر عن هذا ، وكلاما يصدر عن ذلك ، وآخر تنطق به تلك ، وتتخذ مادة دراستها ؟ ان في هذا ما فيه من اضطراب ولن يؤدي الى نتائج ذات بال . يتفق ذوو الدراية من علماء اللغة على أن المدد الأدنى للحصول على فكرة صحيحة عن اللغة هو النان من أفراد الجماعة الكلامية : متكلم ومخاطب .

(١) من أصحاب هذه الطريقة المتحمسين لها أستاذي ج . ر . فيرث وقد عرض رأيه في محاضراته وكتباته ؛ انظر على وجه الخصوص مقاله التيم « الشخصية واللغة في المجتمع »

J.R. Firth : Personality and Language in Society. The Sociological Review (Journal of the Institute of Sociology, Ladbury, Herefordshire, England) Vol. XLII, Section Two, 1950, pp. 37 - 52.

Descriptive	(٢)
Mathematical Relations	(٣)
Mechanical	(٤)
Logical	(٥)

ويرى الاستاذ فيرث أن العدد الأدنى في هذا السيل شخص واحد ،
وان كان يسلم بأن اعتبار الحد الأدنى شخصين صالح للوفاء بمعظم
الأغراض^١ .

ب - هذه الطريقة تؤرخ للتطور اللغوي للشخص في الجماعة منذ ولادته ،
لا بل أنها تدخل في حسابها أن الطفل يولد على طبيعة خاصة ، ومن أهم
ما في طبيعة الكائن البشرى مما يتصل بدراسة اللغة ، هو الجهاز
العصبى^٢ ، وبعض الصفات الوراثية ، وأعضاء النطق . ما نوع الجهاز
العصبى الانسانى ؟ كيف تنشأ اللغة في الجهاز العصبى ؟ أمة عناصر
وراثية تجعل الكائن البشرى ذا قدرة على اكتساب اللغة ؟ قد يجوز لنا
أن نصف الانسان بأنه « حيوان لغوى »^٣ ، وانا لنلاحظ أن الطفل يميل
الى أن يكون لغوياً فهل للوراثة دخل في هذا ؟ هل يولد الطفل وقد
وهب قدرة على تعلم لغة معينة : العربية أو الانجليزية أو الالمانية مثلاً ؟
واذا كان الجواب بالاثبات فكيف نعلم أن أطفال المهاجرين الى جماعة لغوية
مختلفة هؤلاء الأطفال الذين يولدون في البيئة الجديدة ويمشون فيها حياتهم -
وقد انقطعت الأسباب بينهم وبين لغة آبائهم - يتعلمون لغة هذه الجماعة ،
ويتعلمونها بنفس السرعة التي يتعلمها بها أهلها الأصليون ، ويتكلمونها
كما يتكلمها أصحابها ؟ أم أن القدرة اللغوية الوراثية ، ان كانت ، فهي
« عامة » ؟ ومن الملاحظ أن المتكلم بأى لغة لا يستعمل أعضاء نطقه
فحسب ، بل كثيراً ما يلجأ الى التعبير اليدوى^٤ ، والى التعبير بلامح
وجهه ، فهل لهذا دخل بماضى الانسان ، وبالتراث الانسانى ؟

هذه المسائل وغيرها المتعلقة بالصلة بين طبيعة الكائن البشرى وصفاته
الوراثية وبين سلوكه اللغوى ، مسائل أثارها بعض المحدثين من علماء
اللغة ، وهم يدعون الى بحثها ، ولكنها لمّا تبحث البحث الواجب ، وينتظر

- (١) المرجع السابق انظر ص ٤٥ ، ص ٤٧ ، ص ٤٩ ، ص ٥٠ - ٥١ .
(٢) Nervous System .
(٣) Linguistic Animal .
(٤) Hand Expression .

أن تؤدى البحوث المقبلة فيها الى أن يزداد فهمنا لطبيعة اللغة ووظيفتها .
ومن البين أن البحوث في هذه الامور تستدعى الاهتمام بعقائى مستمدة
من علم الأعصاب ، وعلم الوراثة^٥ ، وعلم الحياة العام^٦ أكثر من الاهتمام
بنتائج علم النفس .

هذه الطريقة تهتم بـ « الشخص »^٧ و « الشخصية »^٨ اهتماماً كبيراً ،
وان الدراسات الفسيولوجية ، والتشريحية ، والعصبية ، والطبية لتبين
أهمية الجهاز العصبى كله « والفرد المفردة للمهرمونات »^٩ في تكامل الشخصية ،
وان مميزات الشخصية لتجد التعبير عن نفسها من خلال النظام اللغوى .
ثم ان دراسة العيوب الكلامية^{١٠} والاضطرابات اللغوية^{١١} ذات أهمية
كبيرة بالنسبة الى هذا الموضوع . ولا شك أن الدراسات الكليينكية^{١٢}
للأفازيا^{١٣} قد أفادت اللغويين بما ألقته على اللغة من ضوء . ولكن في دراسة
هذه الحالات المركزية يجب أن نأخذ الشخصية عاملاً هاماً ذا صلة وثيقة
بالموضوع . ان الاهتمام بالشخص والشخصية يفيد في جوانب كثيرة
من الدرس اللغوى ، وفي دراسة الأسلوب^{١٤} بوجه خاص ، ولكن ثمة
حقائق وخصائص لغوية « غير شخصية »^{١٥} وعلى الباحث اللغوى أن
يعبر الخصائص الشخصية من الخصائص غير الشخصية^{١٦} .

ج - وهذه الطريقة اذ تهتم بالشخص وبالشخصية فهي لا تنظر الى الشخص

Neurology	(١)
Genetics	(٢)
General Biology	(٣)
Person	(٤)
Personality	(٥)
Endocrine Organs	(٦)
Speech Defects	(٧)
Language Disorders	(٨)
Clinical Studies	(٩)
Aphasia	(١٠)
Stylistics	(١١)
Impersonal	(١٢)
هذه الفقرة عن :	
J.R. Firth : Personality and Language In Society, pp. 50 - 51.	(١٣)

على أنه « مستقل » ، إنما تدخل في حسابها أنه عضو في جماعة كلامية معينة ، فهي — كما تدخل في اعتبارها مقومات الشخصية وطبيعتها التي لها علاقة باللغة : بتعلمها ، وباستعمالها وبتطويرها الخ — تقيم نظرتها على أساس من العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي للشخص ، على أساس من العلاقات الاجتماعية التي يرتبط بها الشخص ، ومن القيود الاجتماعية التي تفرض عليه والتي تلزمه بسلوك لغوي معين في حالات معينة . ولا شك أن هذه العوامل والظواهر والعلاقات والقيود تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، وتختلف في المجتمع الواحد باختلاف العصور . إن الأساس الاجتماعي في دراسة « اللغة » ، وفي دراسة السلوك اللغوي للشخص أساس على جانب كبير من الأهمية : فاللغة الانسانية في نشأتها — سواء أكانت أساسية المنشأ أم متعددة ، وأيا كانت الطريقة التي نشأت بها — من صنع المجتمع^٢ ، وفي المجتمع يكون استعمال اللغة ، وتعلمها ، وتطورها ، كما أن تأثيرها كائن فيه .

ولذلك فإن أى نص كلامي — ملفوظا كان أو مكتوباً — لا يوصل إلى معناه الحق الكامل بدراسته وحده مستقلاً ، بدراسته من الناحية الصوتية ، ومن الناحية النحوية ، ومن الناحية المعجمية ، بل يجب أن يدخل في تقدير معناه عناصر أخرى غير العنصر الكلامي ، عناصر أخرى تكون هي والعنصر الكلامي كلا متكاملًا ، فمن الواجب الاهتمام بالمسائل الآتية :

(١) ما للمشاركين في الموقف الكلامي من خصائص متصلة به ، خصائص متعلقة بأشخاصهم وشخصياتهم ، وبالعلاقات القائمة بينهم . وهؤلاء المشاركون هم

المتكلم والسامع — أو والسامعان أو والسامعون — (أو هم في حالة النص المكتوب الكاتب ومن يقرأ) وغير من يتكلم ويسمع (أو غير الكاتب ومن يقرأ) من الحاضرين .

ويندرج تحت هذا النصوص الكلامية للمشاركين ، والأحداث غير الكلامية التي تصدر عنهم أو التي يتخذونها كإشارات وتعبيرات الوجه والانفعالات وما إلى ذلك .

(ب) الموضوعات (= الأشياء) المتصلة بالموقف الكلامي ، كالمكان الذي يجري فيه الكلام ، أو حالة الجو إن كانت متعلقة بالموقف الكلامي الخ .

(ج) أثر النص الكلامي في المشاركين ، كالاتقاع ، أو الضحك ، أو الألم الخ .

(٢) هذا عن الدراسة الوصفية للغة « حية » ، أما دراسة لغة « ميتة » في مرحلة من مراحلها ، فهي وإن كانت في جوهرها دراسة وصفية إلا أنها تختلف في أمور عن الدراسة الوصفية في الحالة الأولى ، إذ أنه في الحالة الثانية لا يتسنى للغوي الوقوف على كثير من الظروف التي كان يستعمل فيها الكلام ، ولذلك فهو في حاجة إلى الاستعانة بالمعلومات التاريخية عن المجتمع صاحب اللغة في الفترة التي يدرسها ليتأني له إعادة بناء شيء قريب من الظروف التي كان يستعمل فيها الكلام الذي يدرسه . ومن الثابت أن النتائج التي يصل إليها اللغوي أحياناً في هذا المجال لا تكون دقيقة أو كافية .

(١) هذه العناصر الثلاثة هي عناصر التصور الذي يدعوه الأستاذ فيرث Context of Situation ، انظر المرجع السابق ص ٦ - ٩ ، وانظر تفسير الأستاذ فيرث لهذا التصور في كتابات أخرى له هي —

1) Speech (Bena, 1930) pp. 38 - 43.

2) Linguistics and the Functional Point of View (English Studies XVI, 1, February, 1934).

3) The Use and Distribution of Certain English Sounds (English Studies XVII, 1, February, 1935).

4) The Technique of Semantics (Transactions of the Philological Society, 1935, pp. 64 - 72).

5) Tongues of Men (Watts & Co., London, 1937) Chapter X.

وانظر عرض الدكتور تمام حسان لهذه الفكرة في كتابه « مناهج البحث في اللغة » ص ٢٦٦ - ٢٦٩

(١) انظر المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٩
(٢) انظر الكلام عن « أصل اللغة » في كتاب « اللغة » لـ « فندرس » تعريب الأستاذين عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص (نشر مكتبة الانجلو المصرية ، طبع مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٥٠ م) ص ٢٩ - ٤٢ . وانظر الجزء الخاص بنشأة اللغة في :

Otto Jespersen : Language

E.H. Sturtevant : Introduction to Linguistic Science.

وقد ظهر بالعربية حديثاً كتاب للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وآق موضوعه « نشأة اللغة » .

وما من شك في أن الدراسة الوصفية لمرحلة قديمة من مراحل لفظة لا تزال تبقى على الألسنة ، تختلف كذلك عن الدراسة الوصفية للمرحلة الراهنة لهذه اللغة أو لسواها ، ففي الحالة الأخيرة يتاح للغوي - كما بينا - أن يدرك الحقائق « غير اللغوية » التي يحتاج إليها في دراسة المعنى ؛ وهذه الحقائق يكون الوصول إليها في الحالة الأولى عن طريق التصور استعانة بالمعلومات التاريخية كما هو الشأن في دراسة مرحلة من مراحل لغة « ميتة » .

(٣) ثم إن دراسة تغير المعنى من مرحلة إلى أخرى في اللغة الواحدة تتبع منهجا تاريخيا له اعتباراته وشروطه الخاصة ؛ ومن أول هذه الشروط دراسة كل مرحلة من المراحل على حدها دراسة وصفية قبل الانتقال إلى الدراسة التاريخية أو التطورية .

والدراسة اللغوية محوجة ، في بعض جوانبها - بالمقارنة بين لغتين أو أكثر من بعض الوجوه - إلى اصطلاح منهج آخر هو المنهج المقارن^٢ :

(١) دراسة اللغة في فترة معينة من تاريخها توصف بالفرنسية بأنها -

Descriptive أو Statique أو Synchronique
وبقابل هذا بالإنجليزية : Synchronic (Synchronistic) أو Static أو Descriptive
وترجمة هذا بالعربية : سكونية - ساكنة - استقرائية = مستقرة = حال الاستقرار ؛
أو ثابتة - (حال الثبات) أو وصفية .

أما دراسة اللغة من حيث تغيرها من فترة إلى أخرى فتوصف بالفرنسية بأنها :
Diachronique أو (Dynamique) Evolutive أو Historique
وبقابل هذا بالإنجليزية : Diachronic (Diachronistic) أو Dynamic أو Historical
وترجمة هذا بالعربية : حركية - متحركة - أو تطورية أو تاريخية .

وكان فرديناند دي سوسير ، العالم السويسري ، أول من ميز تمييزا علميا بين هاتين النظرتين ، كما كان له فضل إدخال المصطلحين :

Synchronique و Diachronique
و قد أبرزت محاضرات فرديناند دي سوسير (ولد سنة ١٨٥٧ ومات سنة ١٩١٣) التي نشرها تلاميذه سنة ١٩١٦ أهمية الفصل القاطع بين هاتين النظرتين : بين اللغة من حيث هي نظام ثابت ، وبين اللغة من حيث هي تغير لغوي . وأصر دي سوسير على ضرورة الفصل القاطع بين دراسة اللغة حال ثباتها ، وبين دراستها حال حركتها . كما بين أن كل دراسة من هاتين يجب أن يكون لها مناهجها الخاصة بها . من :
Alf Sommerfelt : Recent Trends in General Linguistics (Diogenes, Number 1, English Edition pp. 64 - 70. A Quarterly Publication of the International Council For Philosophy and Humanistic Studies, Unesco.)
Comparative Method (٢)

ولهذا المنهج ، شأن أي منهج ، شروطه واعتباراته ووسائله .

بعد ذلك التعريف بوظيفة اللغة تعريفا مخالفا للتعريف « الكلاسيكي » لها ، وبعد هذا البيان الموجز لطريقة دراسة هذه الوظيفة ، شرع في تناول طائفة من المسائل الهامة التي تندرج تحت « اللغة والمجتمع » فنبين أنواعا من العلاقات المتبادلة بين اللغة والمجتمع ، مبرزين أنواعا مختلفة من الوظائف اللغوية . وليس المقصد من تناول هذه المسائل في هذا المجال أن ندرسها دراسة منفصلة كاملة فهذا محجوج إلى فضل زمان ومكان ، ولا ينهض به حق نهوضه الا طائفة متعاونة من العلماء ، إنما المقصد أن تعرض تخطيطا للموضوع يبرز ماهية كل مسألة من المسائل ، ويوضح طرائق دراستها ، وينبه إلى ما قد يكون في دراسة بعض المسائل من فجوات . وقد تفصل أحيانا قليلة في بيان بعض ما نذهب إليه على سبيل التمثيل . وسنرى أن هذا العرض ، ببيانه للدور الذي تقوم به اللغة في حياة الفرد والجماعة والنوع الانساني ، يديننا من فهم حقيقة « اللغة » ، وأنه يشرع للدراسة اللغوية ، لا سيما في حالة العربية فصيحها وعاميتها ، مجالات جديدة واسعة تصطنع فيها مناهج ووسائل حديثة دقيقة . وسنرى كذلك أنه عند بحث الموضوع الواحد يحجج الأمر إلى أن نستخدم مع المنهج الوصفي المنهج التاريخي أو المنهج المقارن أو كلا المنهجين ، مع الاحتفاظ لكل بمجاله وشروطه ، أي دون الخلط بينهما أو بينهما .

السلوك اللغوي للطفل

(١) من جوانب دراسة السلوك اللغوي للشخص ، ومن أول ما يهديننا في سبيل فهم الوظيفة الاجتماعية للغة ، دراسة السلوك اللغوي للطفل : كيف يكتسب الطفل لغة الجماعة التي يولد فيها ويعيش ؟ هل يتعلمها دفعة واحدة أو أنه يتعلمها على مدى طويل ، وعلى مراحل متدرجة ؟ ما الظروف التي يتعلم فيها الطفل اللغة ؟ أهو يتعلمها وحده أم هو يتعلمها بعون ؟ وإذا كان يتعلمها بعون فما حقيقة هذا العون ؟ أئمة مدة واحدة يستغرقها الأطفال جميعا لتعلم اللغة أم أن هذه المدة تتفاوت من طفل إلى طفل ، أو من جماعة من الأطفال إلى جماعة أخرى ؟ وإذا كان تفاوت في هذا الشأن فما أسبابه ، وما ظروفه ، وما نتائجها ؟ ثم هذه اللغة التي يتعلمها الطفل ، ما دلالتها بالنسبة إليه ؟ وما دلالتها بالنسبة لمن حوله ؟ قيم يستعملها ، وما ظروف استعمالها أيها ؟ إلى غير هذا من عشرات الأسئلة .

إن أول ما نقرره فيما يتعلق بالسلوك اللغوي للطفل أنه لا توجد حتى الآن دراسة علمية كاملة موثوق بها لـ « لغة » الطفل قائمة على أساس لغوي . وأكثر ما كتب عن لغة الطفل قائم على أسس نفسية ، ومن وجهة نظر علم النفس على اختلاف مذاهبه ، وهو غالبا ما يستهدف الاهتمام إلى خير الوسائل المعينة على تعليم اللغة للأطفال وللأكبار ، وعلى تعليم الطفل لغة أجنبية ، كما أنه يرمى إلى التوصل إلى بعض الحقائق التي تعنى علم النفس .

(١) فيما يلي بيان بطائفة من أشهر الدراسات المتداولة عن لغة الطفل :

- Bühler, Charlotte : (1) The First year of Life ; New York, U.S.A., 1930 (Trans. from German)
(2) From Birth to Maturity ; Kegan Paul, London, 1937
Descoudres, A. : Le Developpement de l'enfant, de deux à sept ans ; Delachaux & Niestlé, Neuchâtel & Paris, 1943.

- Gesell, A. & Others : The first five years of Life; Methuen & Co. Ltd., London, 1940
Gesell, A. : Studies in Child Development, New York, 1948.
Grégoric, A. : L'Apprentissage du Langage, les deux premières années ; Alcan Paris, 1937.
Grégoric, A. : L'Apprentissage du Langage, la 3 ème année et les années suivantes; Alcan, Paris, 1947.
Guillaume, P. : L'Imitation chez l'Enfant ; Presses Universitaires de France, Paris 1950.
Lewis, M.M. : Infant Speech ; Kegan Paul, London, 2nd ed., 1951.
McCarthy, D. : The Language Development of the Pre-School Child ; University of Minnesota Press, U.S.A., 1929.
Piaget, J. : Le Langage et la Pensée chez l'Enfant. Delachaux & Niestlé, Neuchâtel & Paris, 1929.
Piaget, J. : La Fonction du Symbole chez l'Enfant.
Seth and Guthrie : Speech in Childhood ; Oxford University Press, 1935.
Shirley, Mary : The first two years, a study of twenty five Babies. The University of Minnesota Press, U.S.A., 1933.
Stein, L. : The Infancy of Speech and the Speech of Infancy ; Methuen & Co., London, 1949.
Stern, W. : Psychology of Early Childhood up to the sixth year of age ; G. Allen & Unwin Ltd., London, 1924.

هذا عدا عشرات المقالات في المجلات العلمية لا سيما مجلات علم النفس .

وقد ظهر بالعربية حديثا كتاب عنوانه « اللغة عند الطفل من الميلاد إلى السادسة » ، للأستاذ صالح الشماخ (ملتزم الطبع والنشر دار المعارف ، مصر سنة ١٩٥٥) ، وهذا الكتاب هو الرسالة التي نال بها الأستاذ الشماخ درجة الماجستير (قسم الفلسفة - كلية الآداب ، جامعة القاهرة) وقد نشر ضمن سلسلة « منشورات جماعة علم النفس التكاملي » ، التي يشرف على إصدارها الدكتور يوسف مراد ، وقد كتب الدكتور يوسف مراد - وكان الأستاذ المشرف على الرسالة - مقدمة هذا الكتاب .

وقد ذكر المؤلف في تمهيده (ص ١) والتقدم في مقدمته (الصفحة الثانية) أن هذا البحث يطبق « المنهج التكاملي » . قال صاحب الرسالة (تمهيد ص ١) أنه لا يقدم بأية نظرية جديدة ، « وأننا منذ أقدمنا على اختيار هذه الرسالة كان رائدنا بضعة توجيهات وخطوط عامة سلمنا بها دون نقاش وأخذنا أنفسنا بتطبيقها وفي مثل هذا التطبيق يكون التقدير النهائي لعملنا . وإن أهم هذه الخطوط والتوجيهات هي فكرة : « التكاملي » التي نشأت عليها . . . » ثم ذكر (تمهيد ص ٢) أن تطبيق المنهج التكاملي يسر له ألا يتقيد بمدرسة دون أخرى في دراسة ظاهرة معقدة كاللغة ، فاستفاد من شتى المذاهب والاتجاهات ، ولكنه أهتم اهتماما خاصا بمناقشة آراء ثلاث من مدارس علم النفس وهي مدرسة التحليل النفسي ، والسلوكية ، والجشطلية ولم ينس جهود علماء آخرين .

= وقال الدكتور يوسف مراد في مقدمته (الصفحة الثانية) : « ويكفى أن تلقى نظرة سريعة إلى اللغة لتدرك على الفور أن دراستها لا يمكن أن تقوم إلا على المنهج التكاملي إذ لا بد من تضافر عدد كبير من العوامل الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية لكي تنشأ اللغة وتتطور حتى تصبح أداة ممتازة للتعبير والاتصال بالآخرين . » ، لاحظ أن هذا الكلام ينهم منه أن صاحبه يرى أن وظيفة اللغة ، أو وظيفتها الرئيسية على الأقل ، هي أن تكون « أداة ممتازة للتعبير والاتصال بالآخرين » وقد سبق لنا أن ناقشنا هذا الرأي . ثم قال (نفس الصفحة) :

« وقد أدرك مؤلف هذا البحث ، الأستاذ هادي صالح التمام ، ضرورة تطبيق المنهج التكاملي في دراسة نشأة اللغة وتطورها في الطفولة . فبعد أن تحدث عن مناهج دراسة اللغة تناول الأسس البيولوجية للكلام ، واللغة عند الحيوان ، أي أنه نظر إلى اللغة من حيث هي مظهر من مظاهر السلوك العام وأن دراسة المعالم الأولى للغة الانفعالية تعين في فهم اللغة التصورية التي ترتقي تدريجاً نحو مستوى التجريد والتعميم . وفي هذه المرحلة التي تتحول عندها اللغة من مستواها الانفعالي البحث إلى مستواها التصوري نلمس ما بين العوامل الفسيولوجية والنفسية من تضافر وثيق .

وبعد أن تحدث المؤلف طويلاً عن المادة الأولية للغة من صراخ وأصوات ومناغاة انتقل إلى وسائل اكتساب اللغة مبرزاً أثر العوامل الاجتماعية في تطورهما وارتقاها . »

والذي نراه أن هذا البحث يقوم في جملته على أسس نفسية ، وهو صادر من ثقافة نفسية ، وينظر إلى لغة الطفل من وجهة نظر على النفس في الأغلب ، وأن اتبع ما يسمى المنهج التكاملي ، وأن ذهب صاحبه إلى أنه يؤكد على الجانب الاجتماعي توكيداً كبيراً (ص ١٦٧) ؛ والدكتور مراد ينظر إلى هذا البحث على أنه « جدير بأن يحتل مكانة ممتازة بين المراجع العربية الخاصة بالعلوم السيكولوجية » (الصفحة الثالثة من المقدمة) .

وليس هذا البحث محاولة لوصف لغة طفل مصري مثلاً أو لتدوين ملاحظات عن لغة مجموعة من الأطفال الذين يتكلمون لغة واحدة ، ولكنه أشبه بالعرض لطائفة من أهم النتائج التي وصل إليها جمهور من درسوا لغة الطفل على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم ولطائفهم من أبرز الآراء التي ذهب إليها مع محاولة الاختيار منها قيمة الكتاب وليس هذا بالامر البين - انه يقدم إلى قراء العربية تعريفاً من وجهة نظر صاحبه - بما وصلت إليه دراسة لغة الطفل عند جماعة من الغربيين . ولذلك فالكتاب يصلح أن يكون دافساً ومدخلاً إلى دراسة لغة الطفل . ونرجو أن يتبع هذا العمل أعمال أخرى بالعربية تحاول أن تدرس لغة الطفل ، أو جوانب من لغته ، على أسس لغوية . وهذه الدراسات يحتاج القائمون بها إلى التزود بثقافة لغوية حديثة ، ولا ينفي بالقيام بها التزود بنظريات علم النفس على اختلافها : يحتاجون إلى دراسة علم اللغة العام لتكون لديهم فكرة صحيحة عن ماهية اللغة ، وعن طرائق دراستها ، وعن وسائل هذه الدراسة ، وهم محتاجون على وجه الخصوص إلى إتقان علم الأصوات اللغوية نظراً وعملاً فمن الضروري أن تقوم دراسة لغة الطفل منذ أوائل مراحلها على وصف صوتي دقيق .

أما ما كتبه بعض علماء اللغة عن لغة الطفل على أسس لغوية فلا يبلغ أن يكون دراسة كاملة ، إنما هو تخطيط لخير الطرق المؤدية إلى هذه الدراسة ، وتدوين لطوائف من الملاحظات ، وتنبيه إلى ما في هذه الملاحظات من ثغرات : أن ما صنعه هو محاولة لتفهم المشكلة ، وبيان لأهميتها ، ودعوة علمية إلى بحثها أكثر من أن يكون حلاً لها كاملاً أو أشبه بالكامل .

(٣) وتأخذ الآن في عرض مجمل لبعض الملاحظات الهامة التي توصل إليها طائفة من اللغويين فيما يتعلق بلغة الطفل .

١ - يرى جماعة من علماء اللغة المحدثين - ومنهم الأستاذ فيرث - أن تتبع النمو اللغوي للطفل يجدر أن يكون مرتبطاً بالتجارب الهامة التي تمر بها حياة الطفل ، وهذه التجارب الهامة ، في رأى الأستاذ فيرث ، هي :

١ - المرحلة الأولى ، مرحلة المهد ٢ ، وهي منذ ولادة الطفل إلى ما قبل استطاعته الجلوس .

٢ - مرحلة الجلوس ٣ ، وفي هذه المرحلة يكون بدء الكلام ، واللعب بالدمى وما إليها .

٣ - مرحلة الحبو ، وفي هذه المرحلة يتسع عالم الطفل شيئاً ما ، لأن الحبو ينقله إلى أبعد من مجلسه .

٤ - مرحلة السير بمساعدة ، وفي هذه المرحلة ينتقل الطفل إلى عالم أرحب .

٥ - مرحلة سير الطفل وحده ، في الأماكن القريبة من المنزل .

(١) J.R. Firth عن محاضراته في علم اللغة العام بمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن وقد استمعت إليها من ١٩٤٨ - ١٩٥١ م .

Nursery	(٢)
The Sitting-Up Stage	(٣)
Speech	(٤)
Crawling About	(٥)
Walking with Help	(٦)
Walking alone	(٧)

٦ - مرحلة السير خارج المنزل، وفي هذه المرحلة يستثمر الطفل حريته لا يجدها في المرحلة التالية .

٧ - مرحلة الذهاب الى المدرسة ، وهذا في المجتمعات التي يكون بها « مدارس » ، أو مرحلة التربية الخاصة التي يتلقاها الطفل من بيئته لتأهيله لنوع من العمل في المجتمعات التي ليس بها « مدارس » . وهذه المرحلة من أهم المراحل بالنسبة للغة .

ب - هذا ترتيب مقترح لسير « الدراسة » ، ولكن الترتيب الذي تسير عليه « الدراسة » شيء يختلف عن الترتيب الذي تقرر فيه نتائجها . ومن ثم فإننا ، في عرض الملاحظات الخاصة بلغة الطفل ، سنتبع التقسيم الثلاثي الذي ارتضاه العالم الدنماركي الكبير « أوتو يسيرسن »^١ وهو أن النمو اللغوي للطفل يستغرق ثلاث مراحل هي :-

١ - مرحلة الصياح^٢

٢ - مرحلة البأبة^٣

٣ - مرحلة الكلام^٤ التي تنقسم الى فترتين (أ) فترة « اللغة الصغيرة »، أي اللغة الخاصة بالطفل ، وفي هذه الفترة يكون الطفل من الوجهة اللغوية « متفردا » (ب) وفترة اللغة المشتركة^٥ ، أو لغة الجماعة ، وفي هذه الفترة يأخذ خضوع الطفل للمجتمع وتأثره به في الازدياد شيئا فشيئا .

والآن نشرع في التعريف بالخصائص العامة للغة الطفل في كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث .

Walking Outside	(١)
Otto Jespersen : Language, Its Nature, Development and Origin ; P. 103 .	(٢)
Screaming Time	(٣)
Babbling time ; Cooing time ; Crowing time	(٤)
Talking time	(٥)
Little Language	(٦)
Common Language	(٧)

١ - مرحلة الصياح :

وهذه المرحلة تمتد من مولد الطفل الى حوالي الاسبوع الثالث من عمره ، وقد تستمر الى حوالي الاسبوع السابع أو الثامن .

ان الطفل يقابل العالم ساعة يولد بصراخ وصياح ، ولكن هذا الصراخ الصادر عن « جهازه الصوتي » ليس « كلاما »^١ ، ليس من كلام جماعته ، ولا هو من كلام نى جماعة تتكلم بلغة أخرى غير لغة جماعته . وهذا الصراخ لا يدل وحده على أن الطفل لو قطع عن المجتمع كل القطع فسينطق يوما ما بكلام جماعته ، أو بكلام أى جماعة غيرها . ذلك لأن الطفل لا يتلهم لغة جماعته ، أو أية لغة ، الهاما ، ولا هو يتنكر النطق بها ، أو بسواها ، ابتكارا ، ولكنه يمر ، وهو في مجتمع ما ، بمراحل طويلة وشاقة حتى يستطيع أن يتفاهم مع من حوله بلغتهم ، يمر بمراحل أولها هذه المرحلة ، مرحلة الصياح .

ان الصيحات التي تصدر عن الاطفال في هذه المرحلة صيحات « عامة » تكاد تكون واحدة عند جميع الاطفال . وعلى الرغم من أن الصياح ليس « كلاما » ، وليس الأصل فيه أن الطفل يريد أن « ينقل » شيئا ما الى غيره ، الا أنه ، بالنسبة لمن حول الطفل من الكبار ، يحدث شيئا مما يحدثه الكلام . فهم « يقرأون » فيه شيئا ما ، ويهرعون الى الطفل عند سماعهم صياحه لازالة ما به من ضيق . وانه ليأتي وقت يلاحظ فيه الطفل أنه عندما يصيح فان شخصا ما يهرع اليه ويرضيه بشئ ما ، ولو كان هذا الارضاء بمصاحبه اياه ليس غير .

وعندما يدرك الطفل هذا فانه يستعمل الصياح استعمالا اراديا عندما يقع في ضيق ، أو عندما يريد شيئا ما . وهكذا تغدو الصيحة عملا اراديا^٢ بعد أن كانت

(١) انظر يسيرسن : المرجع السابق ص ١٠٣ - ١٠٤

(٢) Speech
(٣) Voluntary Action

في أول أمرها عملاً انكاسياً .

ولكن للصياح فائدة أخرى غير هذه ، هي فائدة فسيولوجية ، فهو تدريب لجميع العضلات والاعضاء التي سيستعملها الطفل ، فيما بعده في البأبة ، والكلام ، والغناء . وتقول بعض المربيات ، وقد يكون في كلامهن معنى ما ، ان الطفل الذي يكون أعلى صياحا يصبح عندما يكبر خيرا من سواء غناء .

٢ — مرحلة البأبة : ٢

لا تبدأ هذه المرحلة قبل الاسبوع الثالث من حياة الطفل ، وقد لا تبدأ قبل أسبوعه السابع أو الثامن ، وهي تمتد الى حوالي نهاية السنة الاولى من عمر الطفل . تصدر عن الطفل في هذه المرحلة أصوات ، ومجموعات من الاصوات مثل ، ا ، آم ، بب ، ت ، د ، د ، الخ . ولا شك أن هذه الاصوات أطلقها كما كان يصدر عنه في مرحلة الصياح ، وأشد ملازمة لأغراض الكلام . والاصوات ، أو مجموعات الاصوات ، التي تصدر عن الطفل في هذه المرحلة ، لا معنى لها .

والأصوات التي تصدر عن الطفل في أوائل هذه المرحلة لا ينطقها قاصداً أو مقلداً للأصوات التي يسمعها من حوله ، انها نشاط عضلي خالص وبسيط كتجريكه أصابعه ، أو يديه ، أو ذراعيه ، أو رجليه . والطفل يجد من اللذة في اصدار هذه الاصوات ما يجده من لذة في تحريك تلك العضلات الأخرى . والدليل على ذلك أن الاطفال الصم البكم تصدر عنهم أشياء هذه الاصوات وهم بطبيعة الحال لا يسمعونها ، ولا يسمعون كلام من حولهم ليقبلوه . ولكن اذا كانت حركات أعضاء النطق عند الطفل لا تحكم فيها ، ولا سيطرة عليها أول الامر فانها تأخذ شيئاً فشيئاً في أن تصبح أشد انتظاماً ، فيعرف الطفل الصوت الذي يريد أن ينطقه ، ويكون في وضع يمكنه من أن ينطقه بالضبط .

Reflex Action

- (١) أنظر بيكرسن : المرجع السابق ص ١٠٤ - ١٠٥
- (٢) na ; am ; baba ; tata ; dodo. etc.
- (٣) Deaf-Mutes
- (٤)

واذا كان الطفل في أوائل هذه المرحلة ينطق أصواته غير قاصداً ، وغير مقلداً لأنه لا يسمع ، فانه يصل الى وقت تقوى فيه حاسة سمعه ، ويجد متعة أى متعة في سماع الأصوات التي يخرجها هو نفسه . ثم تحدث خطوة بالغة الأهمية عندما يأخذ الطفل في سماع مشابهة بين الاصوات التي تنطقها أمه أو مربيته وبين تلك التي ينطقها هو نفسه . ان الأم عندما تسمع طفلها يخرج صوتاً أو مقطعاً فانها تقبل عليه مسرورة مكررة ما أخرجه من صوت أو مقطع ، وعندما يدرك الطفل الشبه أو المماثلة بين ما ينطقه هو نفسه وبين ما تردده أمه فانه يقع على منبع من المتعة لا يفيض . وهو يصل بعد ذلك الى المرحلة التالية ، عندما يحاول هو نفسه أن يقلد ما يقال له (وهذا يكون عادة حوالي نهاية السنة الاولى) .

ان الطفل في حوالي نهاية فترة البأبة يكون قد تمكن من نطق عدد كبير من الاصوات . وهو في هذا الوقت يجب ان يكون سلاسل طويلة من مقطع واحد مثل *تاتاتاتا* ، *ووووو* ، *وننينين* ، *ودودودودو* ، الخ .

ولقد حاول معظم من عنوا بتتبع لغة الطفل ترتيب الاصوات المختلفة التي ينطق بها الطفل في هذه المرحلة ، وفيما يليها ، ترتيباً زمنياً ، ولكنهم لم يتفقوا في هذا الشأن في جميع التفصيلات . والشائع أن أول ما ينطقه الطفل «صوائت مفردة»^١ ، أو صوائت يسبق كلامها ، وصامت^٢ ، واحد وذلك مثل ل ، رت ، الخ . وان الاصوات الاولى التي ينطقها الطفل ، ان كنا نمثلها بالرموز الكتابية التي تمثل بها بعض أصواتنا ، فهذا من باب التجوز ، فانها ليست في الحقيقة هي نفسها : فما مثله من أصوات الطفل : « ل » و « ر » الخ ليس مطابقاً لما مثله من أصواتنا بهذه الرموز . ويتفق دارسو لغة الطفل على أن « الصوائت الثموية »^٣ (التي يرمز اليها ب) من

Syllable	(١)
tatatata... wawawawaw... nenenenene... dododododo... etc.	(٢)
Single Vowels	(٣)
Consonant	(٤)
la, re, to etc.	(٥)
Labial Consonants	(٦)
P, b, m	(٧)

الصوامت الأولى التي يعلتها الطفل ، ان لم تكن أولها على الاطلاق .

ومما يلاحظ أن الطفل في مرحلة البأبة قد تصدر عنه أصوات ليست من جملة الأصوات التي تتكون منها لغة الجماعة التي سيستعملها يوما ما . فالطفل المصري مثلا قد تصدر عنه في هذه المرحلة أصوات لا يسمها ممن حوله (وذلك كالأصوات التي يرمز اليها كتابة ب ٢) ، وقد تصدر عنه أمثال هذه الأصوات في أوائل مرحلة البأبة حين لا يكون ثمة قصد الى أحداث أصوات معينة ، أو الى تقليد أصوات معينة . ان الذي يحدث أن الطفل يحرك أعضاء نطقه تحريكا متحررا فيحدث أنها أحيانا تتخذ الأوضاع الخاصة بنطق هذه الأصوات فإذا بها تصدر عنه . وقد يحدث أن طفلا ممن كانت تصدر عنهم في مرحلة البأبة ، أو بعدها ، أصوات ليست من جملة الأصوات الرئيسية للغة الجماعة التي سيتكلم بها يوما ما ، يجد صعوبة في تكوين هذه الأصوات نفسها فيما بعد عند ما يكون قد تعلم لغة جماعته وأخذ في تعلم لغة أجنبية تستعمل هذه الأصوات . ومرجع ذلك الى أن الطفل في مرحلة البأبة ، وفي أوائل مرحلة الكلام ، ينطق عددا من الأصوات أكبر مما تستعمله اللغة التي عليه أن يتعلمها ، ولكن تعلمه الطويل لهذه اللغة (بما فيه من كثرة سماع أذنه لأصوات محدودة ، ومن تقليده لهذه الأصوات ، ومن تصحيح الكبار للأصوات التي ينطق بها حتى تتفق مع أصوات لغتهم أو تقرب منها . الخ) ينتج عنه أن تمرر أذنه على سماع أصوات خاصة ، وتمرر أعضاء نطقه على أحداث أصوات معينة ، فإذا أراد أن ينطق أصواتا أجنبية عن تلك التي بذل مجهودا شاقا لتعلمها فإن أعضاء نطقه لا تكون له طبيعة سليمة .

٢ - مرحلة الكلام :

تبدأ هذه المرحلة من حوالى نهاية السنة الأولى من عمر الطفل وتتمد سنوات طويلة . ولما كانت هذه المرحلة طويلة وتشتمل على فترات متغيرة متنايزة ، فقد رأى الأستاذ يسيرسن أن يقسمها الى فترتين : (أ) فترة اللغة الصغيرة و (ب) فترة اللغة المشتركة . والحق أن هذا التقسيم هو أيسر ما يمكن أن يكون لتقرير نتائج الملاحظة والدراسة ، ولكن الواقع أن الطفل في تعلمه الكلام يمر في كل فترة من هاتين بطروفي كثيرة متغيرة قد يعتبر بعضها فترات مستقلة متنايزة .

١ - فترة اللغة الصغيرة :

والمقصود باللغة الصغيرة اللغة التي يتحدثها الطفل لنفسه بتقليده تقليدا غير محكم كلام من حوله من الكبار . والطفل في هذه الفترة « متفرد » شيئا ما من الناحية اللغوية . فالكلام الذي ينطق به يبعد بعيدا بينا عن « الأصل » الذي يحاول أن يقلده . وكثير مما ينطقه في هذه الفترة لا يكون مفهوما الا في نطاق بيئته الضيقة : أمه ، وآبيه ، وإخوته ، ومن اليهم ممن يمشون معه . وبديهي أن الأم ، أو من يقوم مقامها ، هي خير من يفهم كلامه ، أما غير من حوله من صغار وكبار فقد يفوتهم كثير من معاني ما ينطقه . ان كلام الطفل في هذه المرحلة يبدو تعسفيا حتى أنه لممكن مقارنته برسوم الطفل الأولى للرجال والحيوان (فقد يقول أحد الأطفال المصريين « م » بدلا من « مَيْت » ، و « آيك » بدلا من « كَيْت » ، و « لك » بدلا « أكرام » ، و « بر » بدلا من « عيش » . الخ) .

ب - فترة اللغة المشتركة :

يأخذ الطفل شيئا فشيئا من التخلص من خواص لغته الصغيرة الفردية الى أن يصبح كلامه أشد انتظاما ، وأقرب الى كلام الكبار ، وأوضح عند من يحيطون به وعند الغرباء جميعا . ويستغرق الامر زمنا طويلا حتى يصير كلام الطفل « مثل » كلام الكبار ، أى حتى يتقن الطفل الكلام باللغة التي تتكلم بها جماعته .

(١) يقول يسيرسن (ص ١٠٥ من كتابه السابق) :

لقد فسر هذا بأن الطفل يستطيع أن يرى تحرك شفهي أمه وهي تنطق هذه الأصوات ، وهكذا يقلد حركاتها . ولكن هذا التفسير يتضمن أن الطفل يقوم بدرجة كبيرة من التفكير الواعي ، هذا الطفل الذي ينطق م أو م قبل أن يأخذ في تقليد أى شيء يتوله له من حوله . فضلا عن هذا فلقد قيل ان انتباه الطفل لا يكاد يتجه الى ثم أمه بل هو مركز دائما على ميمها . ان الأوجه أن السبب الحقيقي في هذا هو ان العضلات الشفوية المستخدمة في نطق ب أو م هي نفس العضلات التي دربها الطفل في الرضاعة من ثدي أمه أو من رضاعة . وانه لمن المهم في هذا الشأن أن نعرف الصوامت الأولى التي يعلتها الأطفال البميان هي الصوامت الشفوية أم غيرها .

(٢) P ; v etc.

(١) انظر يسيرسن : المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٧

Individualist

(٢)

في أوائل هذه المرحلة يكون كلام الطفل أشد انتظاما ، وإن كان الطفل « يحرف » كثيرا من الكلمات العادية . ولكن العالم اللغوي يستطيع في حالات كثيرة أن يكشف عن أسباب تحريفه للكلمات . وللطفل في هذه الفترة « قوانينه » الصوتية الخاصة ، وقد يحوج الأمر إلى عالم في الأصوات اللغوية لفهم القوانين الصوتية الفردية لطفل من الأطفال .

ويلاحظ أن الطفل في أوقات من هذه المرحلة (في أوائلها خاصة) يجد صعوبة في نطق بعض الأصوات عندما تكون جزءا من مجموعة ، أو مجموعات ، من الأصوات ، بينما هو قادر على نطقها مفردة ، أو على نطقها عندما تقع في مجموعة أو مجموعات صوتية أخرى . كما أنه لا يستطيع عادة أن ينطق سلسلة طويلة متتابعة من المقاطع ، وهو يفضل الكلمات المكونة من مقطع واحد ، وكثيرا ما ينطق الأطفال جزءا واحدا من الكلمة ، وهو غالبا ما يكون المقطع الأخير أو المقاطع الأخيرة منها ، وهذا يسمى بـ « الاختصار » أو « القطع » .^٢ ومن المشاهد أن لغة الأطفال يكثر فيها « التضعيفات »^٣ ، وليس المقصود بهذا تلك « التضعيفات » الموجودة بطبيعتها في لغة الكبار ، بل تلك التي تكون من صنع الطفل نفسه ، فكثيرا ما يكون الأطفال كلمات من تلك التي يسمعونها من حولهم بأن يكرروا مقطعا واحدا من مقاطعها (بعض الأطفال الانجليز يقولون « بيب » بدلا من « بينسل » ، و « كك » بدلا من « كرسى »^٤) كما أن بعض الأطفال يكررون كلمات كاملة (مثل « كنج كنج » و « رنج رنج »^٥ بين الأطفال الانجليز) . وربما كان المرجع في كثرة « التضعيفات » في لغة الأطفال هو اللذة التي يستشعرها الطفل في تكرار نفس الفعل العضوي حتى يصيبه الكلال .

ومما يلاحظ أن الطفل يكون قادرا على إدراك نغم الكلام الذي يسمعه قبل أن يفهم كلمة واحدة مما يقال له أو على مسمع منه بزمان طويل : فهو في هذه المرحلة

يستطيع أن يميز بين الكلام الذي يوجه إليه بحب وعطف ، وبين ذلك الذي يوجه إليه بحدة وغضب ، فتنبسط أساريره ويهش لسماع الكلام الأول ، ويعبس ويجنح إلى البكاء عند سماعه الكلام الثاني . وقد لوحظ أن كثيرا من الأطفال يستطيعون في سن باكرة أن يدركوا النغمة الصحيحة التي يقال عليها شيء ما ، أو يغنى عليها شيء ما .^٦

وهذا الحديث عن إدراك الطفل لنغم الكلام يقلنا إلى الحديث عن مسألة أخرى : إن الطفل لا يسمع أصوات اللغة مفردة ، ولكنه يسمع كلمات وجملًا سواء أكانت هذه الكلمات والجمل موجهة إليه أم لم تكن بأن كان الكبار يتحدثون فيها بينهم على مسمع منه . وهو لا تعلم الجانب الصوتي ، أي العنصر الخارجي ، للكلمات والجمل مستقلا عن معانيها المرتبطة بها ، أي عن عنصرها الداخلي ، ذلك لأن الجانب الصوتي لأي كلمة ومعناها مرتبطان ارتباطا لا انفصام له بالنسبة للطفل ، كما هو الشأن بالنسبة للكبار كذلك .^٧

وإن الطفل يأخذ في سن مبكرة في إدراكه أن للكلمات « معنويات » ، بل إن فهم الطفل لمعاني الكلمات دائما ما يسبق قدرته على أن ينطق هو نفسه نفس الكلمات التي يفهم معناها ، وغالبا ما يسبق هذا الفهم تلك القدرة بزمان طويل^٨ (فالطفل قبل أن يتمكن من نطق الكلمات يطلب منه مثلا أن يجلس فيجلس ، أو أن يقف فيقف ، أو أن يحضر شيئا فيحضره ، أو أن يترك شيئا في يده فيتركه وهكذا) .

وإن الكيفية التي يكتسب بها الطفل معاني الكلمات على جانب عظيم من التعقيد والصعوبة ، فمن ذلك أن بعض الكلمات المختلفة المعنى متفقة صوتا ، وهذا من شأنه أن يوقعه في الحيرة ، وإذا كان الطفل يستطيع أن يدرك الكلمات التي تدل على محسوسات يشار إليها وقد يستعملها (مثل : لبن - كرسى - قنطرة الخ) فكيف يدرك معاني الكلمات التي تدل على أمور معنوية ؟ إن فهمه لهذه الأخيرة يتأخر ، وغالبا ما يكون غامضا غير دقيق . ثم إن من الكلمات ما يستعمل استعمالا

- | | |
|---|-----|
| Monosyllables | (١) |
| Mutilation | (٢) |
| Reduplications | (٣) |
| "Pepe" instead of "Pencil" ; "Kaka" instead of "Carrie" | (٤) |
| King-King ; Ring-Ring (=bell) | (٥) |

(٦) انظر المرجع السابق ص ١٠٨

- | | |
|--------------------------|-----|
| Tone | (١) |
| الرجع السابق ص ١١١ - ١١٢ | (٢) |
| الرجع السابق ص ١١٣ | (٣) |
| الرجع السابق ص ١١٢ - ١١٤ | (٤) |

مجازيا ، وان الطفل ليتعلم في ادراك هذه المعاني . وما يصعب على الطفل ادراك معاني بعض الكلمات أن الكلمة قد يكون لها أكثر من معنى باختلاف السياقات اللفظية التي تقع فيها ، أو باختلاف الظروف الخارجية المحيطة أو باختلاف النغمة التي تقال عليها ، أو لغير هذا . كما أن الطفل يجد صعوبة كبيرة في ادراك فكرة الزمن التي تدل عليها بعض الكلمات . ولكن ما يعين الطفل على اكتساب المعاني أنه طئلة اذ يأتي عليه وقت من الأوقات يكثُر فيه من السؤال عما لا يعرفه ، وعن أسائه فيظل يردد « ما هذا ؟ » أو « ما اسم هذا ؟ » .

يتعلم الطفل آخر الامر لغة جماعته . وما يعينه على ذلك قدرته الفائقة على التقليد ، وشدة تطلعه ، وما يجده من عناية من حوله من الكبار لا سيما الام . فالأم ، أو من يقوم مقامها ، تظل « تناعيه » وتكرر على مسامعه دون أن تمل ، الكلمات والجميل والمبارات والاعاني والانشيد حتى عندما تعرف أنه لا يفهم عنها ، ولكنها يجدان في ذلك من المتعة ما يدعوها الى الاستغراق فيه ؛ وهكذا يسمع الطفل الكلمات والجميل مرات ومرات بطريقة محببة . والطفل يجد من تشجيع من حوله على محاولاته الكلامية ما يسر له الطريق . كما أن الطفل يتفسيح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية في نطق الاصوات ، أو في صيغ الكلمات ، أو في تركيب الجمل ، أو في مدلولات الكلمات . فالأم والأب والأخوة والأخوات والأقارب والرفاق الكبار والخدم (ان كان ثمة خدم) لا يزالون يصححون له أخطاءه ، وان كانوا أحيانا يعملون على استبقاء بعض أخطائه استعمالا واستطرافا ، أو لغير ذلك من الأسباب ؛ وقد يصحح الطفل بعض أخطائه نتيجة لادراكه الخاص .

وللطفل قياسه اللغوي من النواحي الصوتية ، والنحوية ، والمعنوية ، فهو يقيس ما لم يسمع أو يدرك على ما سمع أو أدرك ؛ وهذا القياس يعين الطفل من جانب على تعلم اللغة ، كما أنه من جانب آخر يوقفه في بعض الخطأ . ان الطفل في مراحله الاولى لا يتهيا له سماع جميع مفردات اللغة ، وكل صيغها وتركيباتها ، أو قد لا يذكر جميع ما يسمع ، أو قد لا يحضره جميع ما يعرف وقتما يريد ، كما أنه لا يتييمر له ادراك معاني جميع المفردات . فمن قياس الطفل النحوي أنه قد يسمع مثلا مذكر كلمة ولا يسمع مؤنثها ، أو قد يعرف مفرد كلمة ولا يعرف مثناها أو جمعها ، ولكنه يلحظ — ان كانت اللغة التي يتعلمها هي العامية المصرية — أن الكلمات المؤنثة

التي يعرفها تختتم بناء تضاف الى المذكر ، فاذا أراد نطق مؤنث « أخضر » قال « أخضرة » ، ومؤنث أحمر قال « أحمرة » بدلا من « خضرة » و « حمرة » وهكذا . وهو من كثرة سماعه لأسماء دالة على الجمع تنتهي بـ « ين » يعمم هذه الطريقة عندما يريد جمع كلمات لا تجمع في المصرية بهذه الطريقة ، فيجمع « ولد » على « ولدين » مثلا وهكذا . وكثير من الاطفال المصريين يعممون طريقة النفي المستعملة في حال الاسماء على بعض الافعال التي لا تنفي بهذه الكيفية فيقولون « مش جه » بدلا من « ما جاش » وهكذا .

ان لكل طفل لغته المميزة له ، لا بل ان لكل فرد لغته متفلا كان أو صبيبا أو شابا أو كهلا أو شيخا ، ذكرا كان أو أنثى في كل حال من هذه الاحوال . وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الاطفال الذين ينتمون الى جماعته الكلامية ، وان كان ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا . والاطفال يتفاوتون فيما بينهم في سرعة تلقيهم للغة ، وفي سرعة تصحيحهم لأخطائهم اللغوية ، كما يتفاوتون في عدد المفردات التي يعرفها أو التي يستعملها كل منهم ، وهم كذلك يتفاوتون في دقة الابانة عما يريدون ، وفي مسائل أخرى غير هذا كله .

اللغة مميز فردى ومميز طبقي

(١) ان اللغة علامة مميزة للفرد . وأول ما يبدو من تمييزها هذا هو اختلاف « الأصوات » الطبيعية للأفراد ، هذا الاختلاف الذي يرجع الى أسباب عضوية . نعم ان « الصوت » الطبيعي يميز جماعة الاطفال من جماعة الراشدين ، ويميز كلامن هاتين الجماعتين من طائفة الشيخوخة ، كما أنه يميز ذكور كل جماعة من هذه من اناثها ، ولكن الامر لا يقتصر على هذا النوع من التمييز بل انه ليمتد حتى يميز كل فرد من سواء . وان للصوت الطبيعي بهذا الاعتبار وظيفة ، فنحن نميز الشخص بصوته ، نعرف أن فلانا هو فلان . بسماعنا لصوته دون رؤية شخصه . فالصوت بهذا الاعتبار يكاد يكون صنو الجسم ، فكما يتميز الافراد طولاً وعرضاً ، وسناً ونحافة ، وبياضاً وسمره . الخ . فهم يتميزون أصواتاً . ولما لم يكن للفرد دخل في هذه الخاصة إذ أنه ليس كاسبها ، ولكنه ولد عليها (وقد يتخذ صوت فرد من الافراد صفة غير تلك التي ولد عليها نتيجة مرض أو حادث . الخ .) فكل منا على هذا الاساس يولد متفرداً . وان الأصوات الطبيعية للأفراد من العوامل التي تكيف المواقف التي تتخذها ازاءهم ، فقد يكون في صوت من الأصوات ما يدعو الى السخرية والزراية ، وفي آخر ما يدعو الى الإعجاب والاقبال ، وفي ثالث ما يدعو الى النور والابتعاد ، وفي غير هؤلاء ما يوجب التوقير والاحترام ، وهكذا . ومن وظائف الصوت الطبيعي أن سماعه — ولو لم يكن صاحبه يتوجه اليها بالكلام — بل دون رؤيتها لصاحبه — يدفعنا الى تسرع أو أنواع من السلوك : فالتفصل يسمع صوتاً من خارج البيت يعرف فيه صوت أبيه فيتهلل ويستطار ويصبح ويهرع الى لقيائه ، أو قد يصيبه شيء من خوف ، ويتكلف الجهد ان كسان أبوه شديد الولاية عليه . وقد يسمع مرءوس صوتاً قادماً من خارج فيدرك فيه صوت رئيسه فيتصنع الانصراف الى العمل مثلاً . وقد يترق سماعاً صوت جميل لشخص حبيب فتأهب خفافاً للقياء مصلحين من شأن مظهرنا مثلاً . وقد يسمع الجندي صوتاً يتكلم كلاماً لا يفهمه فيرى فيه عدوه فيسرع الى سلاحه مستعداً للقتال به ، وينذر زملاءه بتقديم العدو . كل هذا وليس ثمة « تغافل » ، أو « اتصال » ، أو قصد الى الاتصال .

ومما يميز لغة فرد من فرد ما يكون لكل متكلم من « لوازم » لغوية . و « اللازمة » اللغوية قد تكون كيفية من نطق كلمة أو كلمات ، وقد تكون عبارة يكثر من ترادها ، وقد تكون كلمة أو جملة ينطق بها في ظروف معينة ، وقد تكون لفظة أو ألفاظاً لا يستعملها نظراً ويستعملها هو تعلماً أو تباهياً أو تواضعاً أو مريداً غير ذلك ، وقد تكون عيباً عضوياً في النطق كاللثغة أو الفأفة أو التمتة ، وقد تكون جمعا بين شيئين أو أكثر من هذا ، وقد تكون أمراً آخر يكفي سماعه أو ذكره لتحديد شخص القائل أو المتحدث عنه .

ان « اللازمة » اللغوية علامة دالة على الفرد قد يغنى ذكرها عن ذكر اسم صاحبها ، وهي أشبه بالسمة العضوية البارزة البادية كجحوظ العين ، أو ضخامة الأنف ، أو الغرابة في شكل اليد أو الاصبع . الخ . ومن « اللوازم » اللغوية ما يثير الضحك على صاحبها ، ومنها ما يبعث على الضيق به ، ومنها ما ينشر جواً من الأمل اليه وهكذا ، فللزمة اللغوية أثر في تكيف العلاقة بيننا وبين صاحبها . ذكرنا أن الفرد لا يأخذ لغة جماعته الهاماً ، أو وحياً ، أو ابتكاراً ، ولكنه يأخذها عن طريق التعلم الطويل الشاق في سنوات طفولته الأولى ، وهو لا يزال يضيف الى لغته ، ويعدل فيها الى أن يموت . فمن الخطأ أن تتصور أن لغة الفرد تثبت على حال واحدة بعد انتهاء مرحلة الطفولة التي يصل عندها الى القدرة على التفاهم مع الكبار باللغة العامة المشتركة .

ومما يبين أن لغة الفرد في تفيش دائم أن الفرد لا يحيط بجميع مفردات اللغة العامة في سن معينة ، بل أنه لا يزال يسمع ألفاظاً جديدة يضيفها الى ما يعرفه . فهو في كل دور جديد من أدوار حياته ، وفي كل تجربة من التجارب الهامة التي يخضع لها يسمع ما لم يكن قد سمع . ولنا في حاجة الى أن نذكر أنه في كل حال من هذه الاحوال لا يسمع مفردات جديدة فحسب ، ولكنه يسمع كذلك تعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة . ان الصبي في المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسناً وتجربة فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه كلمات وعبارات لا يعرفها ، ويسمع من أولاد من هم أدنى من أهله كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسمع من أولاد نظراء أهله — ولو كانوا مثله سناً — كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه أو أمه ، أو من اخوته الكبار وسائر

من اتصل بهم من قبل . هذا بطبيعة الحال بالإضافة الى ما يسمعه من جديد الالفاظ المتعلقة بالدراسة ونظامها ، وبالسلوك الذى يفرض عليه وما الى ذلك . وعندما يتصل فرد بفرد من الجنس الآخر تتكشف له كلمات وعبارات جديدة ، وطرائق من الحديث لم يكن له بها عهد . ومعروف أن المتزوجين من الرجال والنساء لا يزال كل منهم يسمع من قريبته مفردات وعبارات لم تكن من جملة ما يعرفه . وهكذا فلغة الفرد الواحد في زمن من الأزمان تختلف عن لغته فيما سبق هذا الزمان وفيما لحقه أو يلحقه .

(ب) وكما ان اللغة علامة فردية مميزة فهي كذلك علامة « طبقية » مميزة .

ففى الجماعة الكلامية الواحدة تختلف لغة المتعلمين عن لغة الأميين ؛ والمتعلمون يختلفون لغة فيما بينهم باختلاف درجة تعلمهم ، وباختلاف مهنتهم ، وباختلاف درجة تراثهم وبسوى ذلك من الاسباب . ولغة الصيادين تختلف عن لغة التجارين وعن لغة الحدادين . . الخ . وكل من هذه تختلف عن لغة طلبة المدارس مثلاً أو عن لغة الموظفين الحكوميين الخ . ولغة المسيحيين فى جماعة كلامية ما تختلف عن لغة من يدينون بالاسلام أو اليهودية مثلاً من أفراد نفس الجماعة الكلامية . هذا بالإضافة الى مبانة لغة كل فرد من أفراد كل طائفة من هذه الطوائف للغة أى فرد آخر من أفراد الطائفة نفسها .

ان سماع فرد من الافراد وهو يتكلم لقاض بمستواه العقلى ، والمادى ، وبمفاته الطائفية والمهنية . . الخ . وهكذا فاللغة قيد من القيود ، أو هى أشبه ، مع شئ من الفارق ، ببصمات الاصابع ، أو بالزى .

وان نغير الفرد للغته المفصحة عن وضع طبقى معين حتى تصبح مثيلة للغة طبقة أعلى أو أدنى ، أو للغة طائفة أخرى من طوائف نفس الجماعة الكلامية لأمر جد عسير ؛ وهو يحتاج الى طول مران ، وتعلم شاق ، وحتى بعد هذا فقد تند عن الفرد ألفاظ أو تعبيرات تدل على أنه دخيل على هذه الطبقة الجديدة لا أصيل فيها .

وهذا يذكرنا بما صنعه برنارد شو فى مسرحيته « بيجماليون »^(١) : فالأستاذ هيجنز عالم الصوتيات اللغوية يلتقط بأذنه اليزا دوليتل^(٢) ، وهى فتاة فقيرة من أسرة متواضعة تتكلم اللغة اللندنية العامية ، ويتمهدها بالتعليم الصوتى واللغوى الشاق ، وبالتعويد على آداب السلوك الراقية ، حتى يصير حديثها كحديث سيدات الطبقة الأرستقراطية بلندن . ويقول برنارد شو فى مقدمة تأليفه هذا انه يقرر ، تشجيعاً لأولئك الأشخاص الذين يتحدثون لهجات تقطعهم عن كل مركز رفيع ، أن ذلك التحول الذى أحدثه « هيجنز » فى بأذنه اليزا لا هو بالمستحيل ، ولا هو بالأمر غير المألوف . فكثير من ذوى الضموح من الرجال والنساء قد استطاعوا أن يكتبوا « لهجة » جديدة راقية غير « لهجاتهم » الأصلية . وهو يقول ان كثيراً من العائلات والعمال بالمحلات الراقية بحى « وست اند » بلندن يتكلمون لنتين (وهو يقصد لغتهم الأصلية التى تنم عن وضع اقتصادى واجتماعى فقير حقير ، وتلك اللغة التى اكتسبوها من مخالطتهم الطبقة الأرستقراطية ومن تشبههم بهم فى حديثهم والتى يستعملونها فى مخاطبة أفراد هذه الطبقة وفى أدائهم عملهم على وجه العموم) . ولكنه يرى أن هذا التحول يجب أن يتم بطريقة علمية والا كانت الحالة التى ينتهى اليها النظام الى اكتساب « لهجة » جديدة أسوأ من حالته اول الامر . وهو يحذر بأذنه اليزا اللاتى يقرآن مسرحيته هذه أن يتخيلن أن فى استطاعتهم أن يصرن سيدات رقيقات بالتقليد الذى لا معلم معه ؛ بل عليهن أن يتعلمن « الأبجدية » من جديد ، وبطريقة مخالفة ، من عالم صوتى قدير .

وهذا ينقلنا الى لغة حديثى الثراء . فهؤلاء قوم ترفعهم الأموال التى انهالت عليهم فجاءة الى مستوى مادى أعلى . وهم يستطيعون أن يقلدوا الطبقة الراقية فى مجتسمهم بالتشبه بهم فى ظاهر المسكن والمأكل والملبس ، وباتخاذ ما يتخذون من أدوات الزينة ومن وسائل التنقل . . الخ ، وقد يبالغون فى ذلك مبالغة تكشف عن حقيقتهم . ولكن اذا كان اتخاذهم هذه المظاهر المادية ممكناً يسيراً ، فانهم لا يستطيعون أن

(١) Bernard Shaw : Pygmalion, Penguin ed., 1949 .
(٢) Higgins .
(٣) Eliza Doolittle .
(٤) Pygmalion, pp. 9 - 10 .

يتحدثوا حديثهم ، أو هم لا يستطيعون أن يتحدثوا حديثهم بنفس السرعة التي يتخذون بها مسكنهم وماكلهم وملبسهم و . . الخ . ومعروف أن محاولتهم التشبه بلهجة الطبقة الراقية الأصلية كثيرا ما تجعل منهم مادة للهزء والسخرية .

إن وجود طرائق مختلفة من الحديث تميز طائفة من طائفة في الجماعة التي تتكلم لغة مشتركة حقيقة معروفة ؛ وهي قائمة في كل مجتمع ، ونحن نضنف الناس على أساس منها . إن التغيرات التي تطرأ على أية لغة مشتركة حسب المستويات الاجتماعية يسمى كل منها «لهجة طائفية» أو «لهجة طبقية»^(١) .

ومن ألوان اللهجات الطائفية الموجودة في كل مجتمع تلك التي تسمى **اللهجة السرية** «أو «الكلام السري»^(٢) . والمقصود بها تلك اللغة التي تستعملها طائفة تخشى سلطة المجتمع ، وتهرب من عقابه ، وتحاول أن تخفي عنه أمرها ؛ وذلك كلغة اللصوص ، ولغة رجال العصابات ، ولغة الحشاشين ومن اليهم ممن يتعاطون مخدرات يحرمها مجتمعهم ، ولغة «القوادين» . الخ . فالملاحظ أن كلا من هذه الطوائف وأشباهها تصطنع مفردات وتعبيرات لا يعرف معناها من ليس منها أو من لم يتصل بهم ويكشف عنها . والذي تلجأ اليه هذه اللغة في الاغلب أنها تعطي بعض الكلمات المستعملة في اللغة المشتركة دلالات جديدة ، وتعتمد على الاستعمالات المجازية ؛ وقد تستعمل كلمات مأخوذة من لغات أجنبية محرفة أو غير محرفة ، وقد تخترع بعض الكلمات والتعبيرات اختراعا . وهذه التغيرات التي تلحق اللغة تغيرات عامدة . وقد لوحظ أن في «اللهجات السرية» المختلفة في الجماعات التي تتكلم بلغات مختلفة قسما مشتركا من المفردات والتعبيرات ، لا سيما في البلاد الأوروبية والأمريكية . ومن أمثلة اللهجات السرية أن بعض الحشاشين في الاسكندرية يستعملون كلمة «سكر» بدلا من «حشيش» . وبعض اللصوص

(١) Class Dialect (١)
(٢) Secret Language ; Underworld Speech. (٢)

في أمريكا يدلون على الجواهر^١ بكلمة «جليد»^٢ ويدلون على الجواهر المروقة بمباراة «الجليد الساخن»^٣ .

Jewels (١)
Ice (٢)
Hot Ice (٣)

انظر في هذا :

اللغة وأصحابها

(١) العلاقة بين البنية اللغوية^١ والبنية الاجتماعية^٢

من المسائل الهامة التي يخوض فيها علم اللغة العام مسألة بنية اللغة ومسدى تمثيلها للبنية الاجتماعية + معروف أن لكل لغة بنيته الخاصة بها فهل هذه البنية تمثل تمثيلا صادقا للبنية الاجتماعية للجماعة المتكلمة بها ؟ أو هل تمثل هذه البنية بدرجة معينة ؟ وإذا كانت تمثلها فكيف يكون هذا التمثيل ؟ ومعروف أن أية لغة من اللغات لا تنظر ثابتة بل هي في تطور مستمر، كما أن البنية الاجتماعية دائمة التطور، ولكل نوع من هذين النوعين من التطور شروطه الخاصة به ؛ فهل كل تطور في البنية الاجتماعية يقابله تطور ما في البنية اللغوية ؟ أو بمباراة أخرى ما القوانين التي تحكم العلاقات الضرورية بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية ؟

كان أنطوان هيبه^٣ من أوائل من وجهوا اللغويين إلى الكشف عن هذه القوانين فلقد رسم في سنة ١٩٠٦ المنهج الآتي :-

« انه من الواجب أن نحدد مع أي بنية اجتماعية تتفق بنية لغوية معينة، كما أنه من الواجب أن نحدد كيف تمثل تغيرات البنية الاجتماعية ، بطريقة عامة ، في تغيرات في البنية اللغوية . »

Il faudra déterminer à quelle structure sociale répond une structure linguistique donnée et comment, d'une manière générale, les changements de structure sociale se traduisent par des changements de structure linguistique.

ولقد أتى مييه نفسه بمثال يوضح في رأيه العلاقة بين هذين النوعين من البنية فقال : ان اللغة الهندو أوروبية كان تصرفها يصططع « عوامل صيغة » كثيرة

Linguistic Structure	(١)
Social Structure	(٢)
Antoine Meillet	(٣)
Flexion	(٤)
Morphèmes	(٥)

جدا يمثل كل منها مجموعة من الخصائص ، وكانت تعطي الكلمة استقلالاً ذاتياً كبيراً في الصبغة ؛ وذلك لأنها كانت لغة عقلية منفردة ؛ وهذه الصفة ذات علاقة بالبنية الاجتماعية للأمة الهندو أوروبية التي كانت جملة جماعات صغيرة كل منها على درجة كبيرة من التحرر عن سائرهما .

أما فـ برونـدال^٤ فقد أقام علاقة بين وجود « الحروف »^٥ وبين تقدم المدنية ؛ فقرر أن « كل شيء يبين أن الحروف في آسيا القديمة ، وفي إفريقيا الشمالية ، وفي أوروبا كذلك ، هي أداة منطقية ؛ لم تكتسب إلا في مرحلة من مراحل المدنية متقدمة نسبياً . »

وكثيراً ما نسب اللغويون وجود الأقسام الاسمية^٦ إلى عقلية « بدائية » ولكن الأبحاث الحديثة التي قام بها لـ هومبورجر^٧ تدعو إلى إعادة النظر في هذه المسألة التي يبدو أنه قد أسى فهم طبيعتها الحقيقية ولو في حالة لغات البانتو^٨ على الأقل .

وفي رأي كثير من اللغويين أن من الميول العامة المرتبطة بتقدم المدنيات الميل إلى التخلص من « المثني »^٩ وهو عدد « حصى »^{١٠} من اللغات التي كان موجوداً فيها حتى لا يقوم إلا التقابل بين المفرد والجمع ، وهو تقابل ذو طبيعة أشد تجرداً ؛ كما أن من هذه الميول الميل إلى تفويض زمن الفعل على هيئته للوفاء بحاجات المجتمعات في تطورها^{١١} .

Jean Perrot : La Linguistique, (Que sais-je ? Paris) p. 128	(١)
V. Brondal	(٢)
Prépositions	(٣)
Instrument Logique	(٤)
المرجع السابق	(٥)
Classes Nominales	(٦)
L. Homburger	(٧)
Les Langues Bantoues	(٨)
Concret	(٩)
Jean Perrot : La Linguistique pp. 126 - 127	(١٠)

ان هذه الامثلة وسواها مما قدمه اللغويون اثباتا لوجود علاقة بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية، قد تكون قاصرة، أو متعسفة، أو لم تؤد إليها مقدمات علمية يقينية؛ ذلك لأن البحث في العلاقة بين هاتين البنيتين لا يزال في أوائله، وهو بطبيعة محوج إلى فضل استقصاء، وزيادة احتراز، وأن النتائج المرضية التي توصل إليها قليلة قلة بالغة. وأيا ما كان فلنا أن نقول مع جان بيرو (1) :

« من الثابت أن بنية أية لغة من اللغات ذات علاقة بعقلية المتكلمين بها، وبمنظمتهم وبمحاورتهم المادية. »

جانب العناصر الموروثة في كل حالة من حالات اللغة لجهد كثيره فالتغير الكامل في مجتمع يصطنع لغة ما لا يستلزم بالضرورة تغيرا في بنية هذه اللغة؛ فالمجتمع الروسي قد قلب أيا قلب في القرن العشرين، ولكن اللغة الروسية احتفظت ببنيتها القديمة. ولقد أدت مناقشة قامت في الاتحاد السوفيتي في سنة ١٩٥٠ واشترك فيها ج. ستالين إلى هذه النتيجة : ان اللغة لا يمكن اعتبارها في مجموعها بنية عليا يحددها في مجموعها البنية السفلى الاقتصادية والاجتماعية. »

(ب) اللغة والجنس : ٤

هل ثمة روابط ضرورية بين اللغة والجنس ؟ أي هل تتمايز اللغات بتمايز الأجناس، وهل التغيرات التي تطرأ على جنس من الأجناس لا بد أن يكون لها أثرها في لغته ؟ هل نستطيع أن نستخلص من درسا لغة ما أنها لغة جماعة مستطيلي الرأس، ومن درسا لغيرها بأنها لغة جماعة مستديري الرأس ؟ هل نستطيع الحكم بأن هذه اللغة لغة راقية طيبة قادرة على التعبير عن لطائف الفكر ودقائق الحس لأن أصحابها ناعمو الشعر، وبأن تلك متخلفة جامدة لا طاقة لها على التعبير عن المعنويات والمجردات لأن أصحابها مجعدو الشعر ؟ هل ثمة رابطة ضرورية بين الجنس وبين القدرة على اجادة لغة بعينها ؟ أتوجد علاقة بين المميزات الجنسية وبين

(1) Jean Perrot : La Linguistique p. 127

(2) Superstructure

(3) Infrastructure

(٤) انظر فندريس : اللغة (تعريب الدواخلي والقصاص) ص ٢٩٥ - ٢٩٨

Margaret Schlauch : The Gift of Tongues, pp. 283 - 285

قدرة الناس على التفكير، وعلى التفكير بصورة خاصة، وعلى التعبير عن تفكيرهم بطريقة معينة ؟

لقد أغرى بعض اللغويين بإيجاد روابط بين اللغة والجنس؛ واستغلت بعض المذاهب السياسية التعصب للجنس والزهو بلغته واتخذتها ذريعة لفرض سلطانها على شعوب تنتمي في رأيها إلى أجناس أدنى من أجناس أصحابها ويتكلمون لغات أدنى من لغاتهم. فالعالم فردريك مولر Friedrich Müller مثلا قد أنشأ كتابه "Grundriss der Sprachwissenschaft" (١)

على أساس من هذه الفكرة، فصنف اللغات طبقا للمميزات الانثولوجية، فاستعرض لغات الشعوب المجعدة الشعر واحدة فواحدة ثم لغات الشعوب الناعمة الشعر.

واقف نتج عن الدراسات اللغوية المقارنة ونظرية العائلات اللغوية أن رأى كثير من الغربيين لغويين ومفكرين وساسة، أن اللغات الهندو أوروبية أسس من سواها كالسامية والحامية، وأن ما سموه « الجنس الهندو أوروبي » أو « الجنس الآري » أسس الأجناس. والحق، كما تقول مارجريت شلاوش Margaret Schlauch أن ما لحق كلمة « آري » Aryan من اضطراب ومن اساءة استعمال ليدعو المرء إلى التردد في استعمال الكلمة ولو في المعنى السائع لها وهو اللغات المنحدرة من الايرانية القديمة Old Iranian والهندية القديمة Old Indian (٢).

لقد برر كثير من البرامج السياسية المستهدفة اتحاد الأقليات وقهرها، والقضاء على العدوان الأجنبية، على أساس أن الجماعة الحاكمة سمي جنسا من الجماعة المغلوبة على أمرها. وقد ذهب الألمان والظليان النازيون والفاشيون دفاعا عن نظامهم السياسي إلى أن اللغات الهندو أوروبية على وجه العموم، والألمانية والاطالية على وجه الخصوص، خير الأدوات الممكنة للفكر الانساني، وإلى أن سائر اللغات جميعا يجب أن تخضع أمامها، وأن تفسح لها الطريق. ومن ثم فقد رأوا أن من الحق، بل من المرغوب فيه، أن تشن الحروب على أولئك الذين اتفق أنهم يتكلمون لغات سامية أو حامية أو غيرها.

(1) Wien, 1876 - 1888.

(2) The Gift of Tongues ; p. 285

والحق أنه لا علاقة ضرورية بين المميزات الجنسية كلون الشعر وتجمده وتوجهه أو نمومته ، ولون العينين وهيتهما ، ولون البشرة ، وشكل الرأس والجبهة ، وطول الجسم وهيتة العظام ، وما إلى ذلك ، وبين قدرة الناس على التفكير ، أو على تعلم لغة من اللغات ، أو بين اللغة على وجه الإطلاق . وحتى إذا غضضنا النظر عن دلالة اختلاط الأجناس فإنه لا ينبغي الخلط بين المميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تعد أعيانا قابلة للنقل ، تعار وتبادل . «^١ أن الأنثروبولوجيين عندما يشرون على جماجم آدمية ترجع إلى عشرات الآلاف من السنين لا يستطيعون إلا القول بأن أصحاب تلك الجماجم كانوا مستطيلي الرأس^٢ أو بأنهم كانوا مستديري الرأس^٣ وهم لا يستطيعون القول بأنهم كانوا يتكلمون - دون شك - لغة اعراية متطرفة في اعراها . ومن الأدلة القريبة العاكمة بفساد هذا الربط بين اللغة والجنس أن من اللغات ما يستفيض حتى يكون لغات جماعات تنتمي إلى أجناس مختلفة ، وهذه الجماعات - على اختلافها في الجنس تجيدها ولا تأنس مشقة في تعلمها ، وذلك شأن الإنجليزية والعربية مثلا . فمن الفتوح والهجرات ما نشر لغات الفاتحين والمهاجرين بين شعوب لا تربطهم بالتكلمين الأصليين روابط بيولوجية . والزنجي الأفريقي الذي يربى منذ طفولته الباكرة في إنجلترا في ظروف واحدة مع الأطفال الإنجليز يتكلم الإنجليزية كما يتكلمها أبناؤها ، وإذا ربي طفل إنجليزي في قبيلة زنجية أفريقية كما يربى أبناؤها تكلم لغتهم تكلمهم أيادها ، وما درى صوتا أو كلمة من الإنجليزية ما لم يتح له تعلمها كما يتعلمها أي أجنبي منها .

(ج) اللغات المتخلفة : ٤

الحديث عن اللغة والجنس من الحديث عن « اللغات المتخلفة » بسيل . فمن

- (١) فنندريس : اللغة العربية عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص) ص ٢٩٨ من هويتي
D. Whitney : La vie du Langage, P. 231 (trad. de l'anglais), 3^e édit., Paris 1880
(٢) Dolichocephalie (= long-headed)
(٣) Brachycephalie (= round-headed)
(٤) انظر Margaret Schlauch : The Gift of Tongues, pp. 285 - 287.

اللغويين من يصف بعض اللغات بالقصور في هذا الجانب أو ذاك ، ولهذا السبب أو لسواه ، عن الوفاء بحاجات المدنية الحديثة ، وعن المشاركة في أحداث العصر واتجاهاته وروحه ، وعن استيعاب العلم والفلسفة والفن . ومنهم من لا يقنع بهذا بل يتطرف فيرى أن أمثال هذه اللغات لن يقدر لها ، بطبيعة بيتها ، أن تسمى إلى رتبة اللغات « الراقية » فتصلح لما تصلح له . نعم إن من المسلم به أن بعض اللغات في أيامنا هذه بعيدة عن التيارات الكبرى للأحداث ، وأقل قدرة من سواها على مجاراة مدنية العصر القائمة على الصناعة والآلات : فقد تستعمل هذه اللغات مفردات لا توائم حاجات العصر وروحه ؛ أو قد لا يكون فيها أسماء عامة بسيطة مثل « شجرة » أو « منزل » أو « خشب » ، هذه الأسماء العامة التي لا يتأتى بدونها تصور الشجرة العامة المجردة وما إليها ؛ وقد يكون نظم syntax هذه اللغات فارط التدقيق بحيث لا يحتاج إلى هذا التدقيق ؛ وقد تستعمل تركيبات معقدة ومكررة ومعوقة للتعبير عن علاقة بسيطة ؛ ومن المسلم به أن النظم قد يؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وقد يؤثر في طرق الاستدلال .

ولكن القول بوجود لغات متخلفة شيء والقول بأن هذه اللغات لن يتاح لها أن تعبر عما قد تعبر عنه اللغات الراقية شيء آخر . فهذه اللغات على هذه الصفة لأنها مرت بطروف تاريخية خاصة ، ولكنها في الوقت نفسه ليست ثابتة static فهي كأي لغة متحركة dynamic متطورة ، إنها متغيرة والتغير الذي يصيبها دائم الحدوث وإن اختلفت سرعة وطبيعة وعمقا وفق ما يصيب الجماعة المتكلمة بها من التغيرات الحضارية . إن ما ينقص هذه اللغات من مفردات من أيسر ما يمكن اضافته ؛ ونظمها المعقد قد ييسر ؛ وبنية جملها قد تتغير مع مرور الأيام ؛ وما

= وفندريس : اللغة ص ٢٩٨ - ٣٠٢

- (١) أن اللغة تستطيع في بعض الأحيان أن تعادل من العقلية وتنظمها ، فساد وضع الفعل في مكان بعينه دائما ، يمكن أن تؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال . والتفكير الفرنسي أو الألماني أو الإنجليزي خاضع للغة إلى حد ما . فإن اللغة إذا كانت مرتبة خفيفة مشتتة على الحد الأدنى من القواعد النحوية ، سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام واتاحت لها حرية الحركة ، وعلى العكس من ذلك تخنق الفكرة من التضيق الذي يصيبها من لغة جامدة ثقيلة . ولكن عقلية المتكلمين تنصرف لاعتاد أي شكل من أشكال اللغة . « (فندريس : اللغة ص ٣٠٢)

في هذه اللغات من تميزات كثيرة لا طائل من ورائها قد تطرح عند ما تنقطع الحاجة إليها ، والعجز عن التعبير عن المجردات يسكن التغلب عليه . ان اللغات « المتخلفة » قادرة ، عندما تواتيها الظروف المناسبة ، على التكيف السريع ، مصطنعة ما في مواردها نفسها من امكانيات ، لتفي بحاجات المدنية الحديثة ، ولتنهض الى تجريدات الفلسفة الأوروبية المعاصرة . ويحكى فرانز بواس Franz Bons ان الطلبة الهنود الأمريكيين أمكن تعريفهم بالمثل العليا الأفلاطونية ولو أن لغتهم خالية من الأسماء العامة التي تستعمل دون « مغير » ؛ فقد كان من اليسير تعليمهم أن يعزلوا كلمة « بيت » من تعبيرات تعنى « ذلك البيت هناك » ، أو « بيتي القائم هنا » و « البيت المصنوع من الخشب » ؛ وما من شك في أن هذا شاق عليهم إذ تعودوا على أن يكون لكل اسم « مغير » modifier ، ولكنهم عندما عثروا على أن يحسوا بالحاجة العقلية الى الاسم « بيت » المجرد من المغير فقد قبلوا الاستعمال ، وساعدوا بهذا على دفع لغتهم الى الأمام .

الفلسفة والقومية

(٤)

ان الوظيفة التي تؤديها اللغة فيما يتعلق بالقومية وظيفية على جانب كبير من الأهمية . فكل أمة تعتز بلغتها ، وتريد لها الحياة ، وتبدو أهمية هذه الوظيفة في ألوان من الصراع الذي ينشب بين الأمم . فبعض الأمم المستعمرة تفرض على الأمم المحتلة أن تكون لغاتها - أي لغات الغاصبين - هي لغة التعليم في المدارس وهي اللغة الرسمية في المخابرات الحكومية وفي المحاكم وفي سائر الأمور الرسمية . ومن أبرز الأمثلة على هذا فرض الإيطالية في ليبيا ، والفرنسية في تونس ، والانجليزية الى حد ما في مصر ، ولكن يلاحظ أن هذه الأمم تحتفظ بلغتها القومية في البيوت ، ومن أفرادها من يعمل على تعليم صغارها اللغة القومية سرا كما كان الحال في ليبيا أثناء الاستعمار الإيطالي . ومن الأمثلة الرائعة على هذا احتفاظ البولنديين بلغتهم البولندية لغة قومية بينما كانت بلادهم مقسمة على ثلاث امبراطوريات في القرن الثامن عشر . وعندما ثور الأمم المحتلة التي فرض عليها المستعمرون لغاتهم مطالبة بالاستقلال السياسي يكون من أهم ما تطالب به استعمال لغاتها هي في الأمور الرسمية وفي التعليم . ان العلاقة بين اللغة وبين اعتزاز الجماعة بقوميتها وتثبيت

هذه القومية وحياتها علاقة خطيرة الشأن ، حتى أنه لمن الممكن بحث لغة طال موتها ، فإسرائيل في العصر الحاضر قد رأت أن من عوامل تجصيع اليهود مختلفي الألسنة بحث اللغة العبرية .

ومن مظاهر اعتزاز الأمم بلغاتها القومية أن بعضها قد تنطرف وطنيته أحيانا فيتخذ مواقف عدائية نحو ما في لغتها من كلمات دخيلة ، وقد تمتد هذه المواقف العدائية اذا نشب صراع بينها وبين أصحاب الكلم الدخيل سواء اتخذ هذا الصراع شكل الحرب ، أو التنافس الاقتصادي أو غير ذلك . وهذه المواقف العدائية تجاه الدخيل قد لا تقتصر على كرهه ، أو محاولة التقليل من استعماله ، بل لقد يتعد الى التظاهر الواعي للغة القومية منه . ومن أبرز الأمثلة على هذا ما حدث في اللغة الألمانية في القرن العشرين ؛ فعندما أثبتت الامبراطورية الألمانية دورها في النشون الدولية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حدثت تظهير منظم لكلمات فرنسية دخيلة كان الزمان قد طال على قبول الألمانية لها ، فحلت

كلمة Spielhaus الألمانية محل كلمة Theater و Fernsprecher محل كلمة Abort و Fahrkarte محل Billet وكلمة Toilette الى غير ذلك من الكلمات .^١

وربما كان الاعتزاز بالعربية التي « وسعت كتاب الله » هو الذي دفع كثيرا من المصريين أفرادا وهيئات في أوائل القرن العشرين خاصة ، الى النفور من كثير من الدخيل الأوروبي ، والى وضع كلمات عربية محل محلها قدر لبعضها أن يسدور على الألسنة والأقلام ، وقدر لبعضها أن يموت .

ولكن من الأمم ما لا تتخذ هذا الموقف العدائي نحو ما في لغتها من دخيل لأسباب خاصة بها ؛ وأقرب مثال على ذلك المتكلمون بالانجليزية . وذلك لأن اللغة الانجليزية بطبيعة تكونها وتطورها كثيرة الكلمات الدخيلة المستعارة من لغات كثيرة مختلفة قديمة ووسيلة وحديثة ، فاحساس المتكلمين بها نحو الاضافات الكثيرة التي تضاف اليها عن طريق الأخذ المباشر من لغات أخرى لا يعدو الغضب الرقيق .

Margaret Schlauch : The Gift of Tongues : pp. 282-283

(١) انظر

اللغة والحياة السياسية

ان استعمال اللغة في جوانب النشاط السياسي المختلفة والسياسة بوجه من وجوه الحياة الاجتماعية - معصوج الى فضل دراسة من كلتا الناحيتين الوصفية والتاريخية . ودراسة هذه الوظيفة من وظائف الكلام من شأنها أن توفقنا على حقائق عن اللغة لا تظهرها سواها من الوظائف ، أو هي لا تظهرها بنفس القوة والوضوح .

(١) ومن عناصر دراسة لغة السياسة ، دراسة المفردات والتعبيرات التي يصفونها كل نظام من الأنظمة السياسية المختلفة دعاية لنفسه ، وتثبيتاً لحكمه ، وفي تعامله مع نظام آخر يخالفه . فوسائل الاقتناع الكلامية مثلاً تختلف في النظام الفاشستي الهتلري أو الموسوليني عنها في نظام ديمقراطي ، وهي تختلف في هؤلاء جميعاً عنها في النظام الشيوعي الروسي بوجه عام ، كما أنها في النظام الأخير تختلف بعض الشيء زمن لينين عنها زمن ستالين وعنها بعد ستالين . ولكن هذه الوسائل ، على اختلافها باختلاف الأنظمة السياسية ، وعقليات الشعوب ، والوضع الحضاري للأمة التي يوجه إليها الكلام ، وبغير ذلك ، قد تشترك في طائفة من السمات العامة .

(٢) ومن ذلك دراسة لفظة الانتخاب : فتدرس اللغة المستعملة في الحملات الانتخابية تحريضاً على انتخاب مرشح وتغيباً عن انتخاب سواه ، مع بيان اختلافها باختلاف طبقة الناخبين والمرشحين ، واللغة المتصلة بالتقسيم الإداري للدوائر الانتخابية ، وبإعطاء الأصوات و « فرزها » وإعلان نتيجة الانتخاب ، ولغة القوانين التي تصدرها الدولة فيما يتعلق بهذا الموضوع ، ولغة الصحف والمجلات والإذاعة في هذا الشأن ، وتطبيقات الجماهير على كل أولئك ، وما سوى ذلك من جوانب استعمال الكلام الانتخابي . كل هذا يدرس وصفياً وتاريخياً في اللغة الواحدة . ولو درس في العربية المستعملة في مصر منذ أول عهدها بالحياة الانتخابية حتى أيامنا لا تضح لنا كيف ماتت كلمات ، وحيث أخرى ، وتبدلت دلالات ثالثة ، ولظهر لنا كيف تغيرت وسائل الاقتناع تنشياً مع ازدياد الوعي الانتخابي للجمهور المصري نتيجة لما خاضه من تجارب ، ولتقدمه الحضاري بوجه عام .

(٣) ودراسة لغة الراسيم التي يصدرها رئيس الدولة في الشؤون السياسية، كتكليف وزارة بالحكم، أو إقالة وزارة، أو افتتاح البرلمان أو تأجيله أو تعطيله على جانب من الأهمية . ولو نظرنا مثلاً في لغة مرسوم إقالة وزارة مصطفى النحاس (باشا) من الحكم سنة ١٩٣٧ ، وفي لغة مرسوم تكليف الوزارة التي وليته في الحكم ، ثم في لغة مرسوم تكليف مصطفى النحاس بالحكم مرة أخرى بعد ذلك ، وربطنا كل ذلك بطروقه لظهر لنا كثير من الحقائق عن الوظيفة التي يمكن أن تؤديها اللغة . كما أن دراسة لغة « خطاب نهرو » تظهر لونا من ألوان استعمال اللغة في الميدان السياسي .

(٤) وتحليل المفردات والتعبيرات المستعملة في الحروب تهيدا لها ، وأثناءها ، وبسببها من شأنه أن يقدم لنا معلومات كثيرة عن حقيقة اللغة ووظيفتها في الحرب العالمية الثانية اتخذت كلمة « الديمقراطية » لونا جديداً ، وتعبيرت دلالة « الحلفاء » فيما كانت تتضمن في نظر « الغربيين » بغضا للروس لأنهم لم يكونوا « حلفاء » من قبل ، أصبحت أثناء الحرب الثانية تعني - من جملة ما تعنيه - مشاركة الروس في التخلص من عدو مشترك . كما أن عبارتي « العالم الحر » و « الأمم الحرة » كانتا أثناء الحرب تدلان على جملة الشعوب المعادية لألمانيا واليابان وإيطاليا ولكن بعد أن اشتدت « حرب الأعصاب » بين « الكتلة الشرقية » و « الكتلة الغربية » بعد انتهاء الحرب أخذت هاتان العبارتان تطويان على المعادة للكتلة الشرقية . كما أن الكلمات الانجليزية المقابلة لـ « العرق ، والدم والدموع » التي وردت في خطاب لونستون تشرشل ، أثناء الحرب ترمز عند الانجليز وعند كثير من حلفائهم إلى وجوب موالة الجهود ، والدأب ، والصبر ، والتماسك لأحراز النصر .

(٥) وتذكر لغة الحرب بلغة « السلام » والدعوة إليه ، والتعذير من الانسحاق إلى الحرب .

(٦) وان تحليل « التفسيرات الدلالية » التي تصاحب الثورات والانقلابات لأمر على جانب كبير من الأهمية والطرافة ، فالحركات الثورية ، كالثورة الفرنسية ، والثورة الشيوعية ، والثورة المصرية سنة ١٩١٩ تنعكس في اللغة قيمها ومعنوياتها والدفع الذي

تحدثه * ويبرز ذلك ، أظهر ما يبرز ، في أنها تميت كثيرا من الكلام اذ تميت أو تريد أن تميت كثيرا من التقاليد والأفكار والعادات ؛ وفي أنها تحيي وتخلق كثيرا من الكلام اذ كانت بطبيعتها الثورية تحيي وتخلق وتريد أن تحيي وتخلق كثيرا من القيم وطرق الحياة وفهمها ؛ وفي أنها تغير دلالات كثير من الكلام اذ كانت بطبيعتها ملحقه التغيير في كلا الميدانين الروحي والمادى .

ولو درسنا أثر التاريخ الثوري لمصر الحديثة في اللغة لانتصحت لنا حقائق كثيرة فالثورة العربية التي كانت تتضمن ، في جملة ما تتضمنه ، احياء القومية المصرية أضافت الى كثير من الكلمات معاني الهزة والسخرية ، والى غيرها كـ « مصر » و « المصرى » و « افلاح » و « الفلاحون » معاني الاعتزاز والفخر .

اما ثورة سنة ١٩١٩ فمن المبارات التي تذكر بها « الهلال مع الصليب » رمزا الى الأخوة والتماصك بين المصريين مسلمين وقباطا ، ودعوة الى احباط التدخل الأجنبي للتفريق بينهما ؛ ومن ذلك اشارة المسلمين الى الاقباط بقولهم « اخواننا الاقباط » . وما يلاحظ أن كثيرا من مواليد بعد الثورة قد سموا : « سعد زغلول » أو « سعد » و « صنية » « أم المصريين » . وما من شك في أن لغة الأغاني والأناشيد المصرية قد غيرها تغييرا كبيرا ثورة سنة ١٩١٩ ؛ وربما ساع لنا القول بأن النشأة الحقيقية للأناشيد المصرية الوطنية مرتبطة بثورة ١٩١٩ . وقد غيرت هذه الثورة من أسلوب الصحافة خاصة ومن أسلوب التعبير الكتابي والكلامى عامة ، فأخذ يخلص من كثير من الزخرف والزينة والقيود التي لا طائل من ورائها ويسلس ويستقيم ، فان ما أحدثته الثورة من تنشيط وتحريك ، وما رفعتك عن الناس من خمول ، وما ألجأت اليه من سرعة في الفعل قد انعكس صداه في اللغة وان ما بين أيدينا من حقائق عن ثورة سنة ١٩١٩ يدل على أن أثرها في العاميات العربية وفي العربية الفصحى في مصر وفي سائر الأقطار العربية أثر خطير ينتظر من يكشف عنه في تفصيله وجملة ، ومن يقومه التقويم الصحيح .

واما ثورة الجيش المصرى سنة ١٩٥٢ فلها كذلك ، شأن كل ثورة ، آثارها في اللغة . فما أحدثته هذه الثورة من الغاء الألقاب قد حكم بالموت على كثير من الكلمات والعبارات من لغة الكتابة بوجه خاص . فلم تعد تستعمل ، بالنسبة الى

المصريين ، كلمات مثل « حضرة » و « أفندى » و « بك » و « باشا » ، و « صاحب العزة » و « صاحب السعادة » و « صاحب المعالي » و « صاحب الرقعة » و « صاحبة المعصية » و « البرنس » و « الأمير » و « الأميرة » و « سمو الأمير » و « سمو الأميرة » ، و « الملك » و « صاحب الجلالة » و « و جلالة الملك » و « الذات الملكية » و « الملكة » و « صاحبة الجلالة » . . . و « الملكة الوالدة » . . . الخ كما لم تعد تستعمل تصرفات كثير من هذه الكلمات والعبارات في التأنيث والتثنية والخطاب والاشارة . وما من شك في أن كثيرا من هذه الألقاب قد استمر في لغة الأحاديث الخاصة بين طوائف من الناس ، فكثير من الأحياء من أصحاب هذه الألقاب ظلوا يخاطبون بألقابهم وبما يتصل بها من صفات ، اما لاصرارهم على أن يخاطبهم أتباعهم والمخاطبون لهم بهذه الألقاب ، واما تأديبا من المتكلمين خشية أن يشعروهم بأن منزلتهم قد عراها النقصان ، واما لهذين معا ، أو لغير ذلك من الأسباب . والروايات كثيرة على غضب كثير من حملة هذه الألقاب أو استيائهم — في أوائل العهد بالغاء الألقاب خاصة — عندما يخاطبون مجردين من ألقابهم . وقد كان يحدث ، أول الأمر ، عندما تخرج الاشارة في الكتابة الى أحد من حملة الألقاب أن يوضع اللقب بين قوسين ، أو أن يردف اللقب بكلمة « السابق » أو « السابقة » أو « سابقا » ، ثم أخذ الناس يكتفون بذكر الاسم مجردا عن اللقب في الأغلب . ولكن ثورة الجيش ، وقد ألغت الألقاب المشعرة بالفوارق الطبقة الكبيرة ، أوجدت لقبا جديدا هو « السيد » (ومؤنثه « السيدة ») يطلق على المواطنين المصريين كافة ، وبهذا أعطت هذا اللقب دلالة جديدة لم تكن له . وهذا اللقب في العربية في مصر يختلف عن Mister في الانجليزية ، و Monsieur في الفرنسية و Her في الألمانية فهذه الألقاب تطلق على السواد الأعظم من الانجليز والفرنسيين والألمان أولئك الذين لا يحملون ألقابا مثل Sir و Lord . . . الخ . وباستعمال « السيد » بهذا المعنى استعملت معه عبارات مثل « سيادتكم » و « سيادة » فلان ، و « سيادته » عند الخطاب والاشارة .^١

(١) تظهر دراسة لقب « السيد » وتصرفاته في العربية دراسة تاريخية ان هذا اللقب ذو تاريخ طويل متطور ، اصططنه العرب في جاهليتهم واسلامهم واستعملته الأمم التي اتخذت العربية بعد اسلامها ، وبعض الأمم الاسلامية الناطقة بغير العربية ، وهو =

= لا يزال قائما في أيامنا، وأعطى في مصر دلالة جديدة بعد ثورة الجيش سنة ١٩٥٢؛ وقد انتقل هذا اللقب من العربية إلى بعض اللغات الأوروبية . وقد استعمل مؤنثة «السيدة» لقبا، كما استعمل مثناه وجمعه مذكرين ومؤنثين «السيدان - السيدتان - السادة السيدات» .

ورد هذا اللقب في الشعر والنثر وفي القرآن الكريم (والقرآن نفسه قد لقبه أبو اسحق الزجاج بـ «سيد الكلام» ؛ انظر لسان العرب مادة «سود») وفي الحديث الشريف، ولم يكن قاصرا على الفصحى . وتتبع استعمالات هذا اللقب في العصور المختلفة يظهر أنه لم يكن في عصر من العصور ذا دلالة واحدة بل هو في العصر الواحد يدل على أكثر من معنى ؛ ولكن استعمالاته جميعا ينتظمها معنى التعظيم والتشريف والتفضيل والتبجيل ؛ وقد تكون الفضيلة التي يطلق بسببها هذا اللقب سموا في الخلق أو براعة في العقل ، أو شرفا في النسب ، أو كملا في الجسم ، أو امتلاكا لغير هذا من أسباب السلطان والبروز . وما كانت هذه المعاني هي الأساس في إطلاقه اتضح أنه يتأتى إطلاقه على كثير من القوى ، وعلى كثير من الأشخاص والحيوان والأشياء ، وهذا الذي كان .

كان «السيد» يطلق في الجاهلية على «الملك» رئيس القوم ، سواء كان رئيس قبيلة أو رئيس عشيرة أو أدنى من ذلك ، وعلى من يقدمه القوم على أنفسهم ، وعلى من يتكلم باسمهم في أمر من الأمور ، (قال زهير بن أبي سلمى في معلقته مخاطبا هرم بن سنان والحارث بن صوف :

يمننا لنعم السيدان وجدتمنا
وقالت الخنساء من أخيها صخر :

السيد الجحاجح وأب
ن السادة الشم الجحاجح)

وكان يطلق على غير رئيس القوم ان برزت فيه صفة يعلى مجتمعه من شأنها كالشجاعة الفارطة ، وكالحلم البالغ ، واحتمال أذى الناس ، والأغراق في السخاء ، وبرجاجة العقل ، والتفوق في المال . كما كان يطلق على كبير السن .

ومن أطلق عليه لقب السيد في الجاهلية مولى العبد أي صاحبه لأنه مالكة ، واستمر استعمال السيد في هذا المعنى طوال نظام الرق .

وبين ما أثر من النصوص الجاهلية أن زوج المرأة كان يلقب بسيدتها (وجاء في القرآن قوله تعالى « وألقيا سيدها لدى الباب » أي بعلاها) .

وكما كان «السيد» يطلق على الشريف والرفيع والمالك من الأشخاص فلقد كان يطلق من قديم على «السنن» من المعز (قال الشاعر :

سواء عليه شاة عام ذنت له
ليذهبها للضيف أم شاة سيّد

ومنه الحديث : نبي من الضأن خير من السيد من المعز) .

= وكان الحمار الوحشي يسمى سيدها ، وأطلق «السيد» على رئيس الجن :

جن هتفن بليل
يتدبن سيدهننه

وفي القرآن الكريم استعمل السيد بمعنى الزوج (وألقيا سيدها لدى الباب) ، وسمى الله تعالى يحيى سيدها وحسورا أي أنه فاق غيره عفة ونزاهة عن الذنوب أو بمعنى الرئيس والامام في الخير ، أو أمير ذلك من أسباب التقديم . وفي الحديث الشريف أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سمي الله - تبارك وتعالى - «السيد» (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : «أنت سيد قرشي؟» فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «السيد الله» فقال : «أنت أفضلها قولا وأعظمها فيها طولا» فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : «أنت أفضلها قولا ولا تستجيز نفسك») . وصفه الله جل ذكره بالسيد معناه أنه مالك الخلق والخلق كلهم عبيده . وأحسب أن وصف الله و «الرب» والمعبود بالسيد أقدم من هذا . وهذا القول من الرسول تواضع وكراهة أن يمدح في وجهه ؛ ولا شك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يفضل أن يلقب بنبي الله ورسوله لا «بالسيد» هذا الذي كان يسمى به العرب رؤساءهم ، كما ورد في بعض الأحاديث (في لسان العرب مادة «سود» : وقيل في معنى قوله لهم لما قالوا له أنت سيدنا وقال قولوا بقلوبكم ؛ أي ادعوني نبيا ورسولا كما سماني الله ولا تسموني سيدها كما تسمون رؤساءكم فاني لست كأحدكم من يسودكم في أسباب الدنيا) .

وقد روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) استعمال السيد في بعض ما كانت تستعمله فيه العرب فقد روى أنه قال للأنصار « قوموا إلى سيدكم » يقصد سعد بن معاذ ، وأنه سأل الأنصار مرة « من سيدكم » قالوا «الجد بن قيس على أنا نبخله» قال : وإي داء أدوى من البخل ؟ . وروى عن الرسول قوله : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» . ولما كان السيد في الجاهلية لقبا يرفع من أشخاص ويضع من آخرين ، ولما كان الإسلام يدعو إلى التسوية ، وبهدف إلى القضاء على الفرقة فقد روى عن محمد (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « كل بني آدم سيد : فالرجل سيد أهل بيته ، والمرأة سيده أهل بيتها . » وقال الرسول للحسن بن علي : « أن ابني هذا سيد وإن الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . كما سمي الرسول على بن أبي طالب «سيد العرب» و «سيد المسلمين» ، ولقب الحسين بن علي بأنه «سيد شباب أهل الجنة» ولقبه هو والحسن بأنهما «سيدا شباب أهل الجنة» وقال الرسول عن فاطمة الزهراء أنها «سيده نساء أمتي» أو «سيده نساء هذه الأمة» أو «سيده نساء العالمين» و «سيده نساء أهل الجنة» . وهذه الأحاديث في علي وزوجته وولديه قد يميل بعض الباحثين إلى الظن بأنها من صنعة الشيعة في عصر متأخر .

كان الصحابة يخاطبون الرسول أحيانا بـ «سيدنا» ويشيرون إليه بـ «سيدي» ، وفي حديث عائشة أن امرأة سألتها عن الخضاب فقالت : كان سيدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يكره ريحه ؛ وهذا اللقب قد يتصرف هنا إلى معنى السيادة تعظيما للرسول أو إلى =

= ملك الزوجية ؛ وقد أطلق هذا اللقب على بعض كبار الصحابة ومن ذلك حديث أم الدرداء « حدثني سيدي أبو الدرداء » و « سيدي » هنا يصدق عليها ما يصدق على « سيدي » في النص السابق. وقد رأينا في الأحاديث النبوية السابقة أن من الصحابة اللذين سمي « سيدي » فاطمة الزهراء .

وفي الشهر العباسي أمثلة تشهد باستعمال « سيدتي » و « سيدي » خطاباً للمحبيب . قال أبو المتاهية :

إلا ما لسيدتي مالها أدلا فأحمل أدلها ؟

وقال البحتري :

سيدي أنت ما تعرضت ظلما فأجازي به ولا خنت عهدا

ومن أشهر الاستعمالات الإسلامية للسيد والسيدة ، وتصرفاتهما في التثنية والجمع ، أطلاقها على العلويين والطالبيين . وقد ظهر هذا الاستعمال بشكل مستفيض أبان اضمحلال الدولة العباسية ؛ وهو في هذا شبيه بلقب « الشريف » . والأرجح أن هذا استعمال السيد ومتصرفاته كان متأثراً بالأحاديث النبوية التي تلقب كلا من علي ابن أبي طالب والحسن والحسين بالسيد ، والتي تلقب فاطمة بالسيدة ، أن صحت هذه الأحاديث ؛ وقد أوردنا بعضها فيما تقدم . كان العلوي أو الطالبي ولا يزال بلقب « السيد » أو « السيد الشريف » أو « الشريف السيد » . أحالت مادة Sharif في دائرة المعارف الإسلامية في وصف أفراد من العلويين بلقب سيد على كتاب « عمدة الطالب في أنساب علي بن أبي طالب » لابن مهني طبعة بومباي ١٣١٨ هـ ص ٥١ سطر ١٦ ، ص ٥٢ س ٢ ، ص ٥٤ س ١٠ ، ص ٥٩ س ٢ ، ٦ ، ٩ ، ١٦ ، ص ٦٥ س ١٥ ، ١٧ ص ١١٧ ، ص ١٤٢ س ٧ ، ص ١٤٩ س ٩ ؛ وعلى « تاريخ الإسلام » للذهبي مخطوط في لندن 1721 الذي يضيف هذا اللقب إلى الإمام الثاني عشر علي بن محمد . ٨٥ .

وأحالت هذه المادة نفسها في استعمال اللقبين « السيد الشريف » و « الشريف السيد » على نهاية الأرب للبيروني ط . القاهرة ١٣٤٢ هـ . ص ٢٧٧ سطر ١٢ ، وعلى « العقود اللؤلؤية » للخزرجي Gibb. Mem. Ser. ١٩١٣ م . ص ٢٠٤ .

وقد أطلقت « السيد » كذلك على الصوفي ، والولي ، والجليل من الفقهاء وأطلق جمعها « السادة » أو « السادات » على الجماعة من كل هؤلاء ، ومن ذلك « السادة الصوفية » ، و « السادات الأولياء » (انظر الشرجي : طبقات الخواص ، القاهرة ١٣٢١ هـ ص ٢٩ ، ص ٣١ ، ص ١٩٥ س ٣ - من دائرة المعارف الإسلامية مادة Sharif) و « السادة الأعلام » (ابن حجر الهيتمي : الفتاوى الحديثة ص ١٢٤ س ٤ - من دائرة المعارف الإسلامية مادة Sharif)

وتستعمل « السيد » لقباً في بعض البلاد الإسلامية التي لا تتكلم العربية كإيران وتركيا والهند والملايو .

وبالإضافة إلى « سيد » يستعمل في فارس لقب « مير » (من « أمير ») وكان هذا اللقب شائعاً في تركيا والهند كذلك . أما في مناطق من الملايو فيستعمل بالإضافة إلى « سيد » لقب « جيب » (بمعنى « محب » أي للشيء أو بمعنى « محبوب » أي أي محبوب منه) وهذا اللقب يستعمل كذلك في مناطق من بلاد العرب .

أما « سيدي » ، وبالعامية « سيدي » فهو الآن شائع الاطلاق في البلاد العربية والإسلامية المختلفة على الأولياء والأخيار (ومن ذلك في الاسكندرية : سيدي جابر - سيدي ياقوت العرشي - سيدي أبو العباس . وسمعت في بنغازي سيدي عبدالسلام - سيدي خليفة سيدي غريب . الخ) ومن الواجب تتبع استعماله في هذا المعنى من الناحية التاريخية . ومن الملاحظ أن « سيدي » بهذا المعنى كثير الورد في كتب روائع الأنوار في طبقات الأخبار ، للشعراني ، ط . القاهرة ١٣١٥ هـ .

ومن استعمالات « سيدي » الحالية في بعض البلاد العربية إطلاقه على الرؤساء عظماء واحتراماً ؛ وأكثر من هذا شيوعاً إطلاقه على كبار السن والمقام . وفي كثير من البلاد العربية يخاطب رب الأسرة لا سيما من يقومون على خدمته ، وزوجته كذلك في بعض البلاد وفي بعض الأوساط بـ « سيدي » ، كما يشار إليه بنفس اللقب ، بينما تخاطب ربة الأسرة وينحدر عنها ، من خدمها ومن يقل عنها شائناً بـ « سيني » . وقد ذكر لي أستاذي الدكتور طه الحاجري أنه في ريف بني سويف من صعيد مصر لا يخاطب الخادم « سيده » بـ « سيدي » بل يخاطبه بـ « يا عمي » ، أما العم الحقيقي أخو الأب فيخاطب ويتحدث عنه بـ « أبويا » بـ « أبويا على » معناها عمي على .

وفي مصر تستعمل « سيد » مضافة إلى الضمائر المناسبة في الأكثر بمعنى الجد (أي الأب أو أبي الأم) ويقابل هذا في المؤنث « ست » مضافة إلى الضمائر المناسبة بمعنى الجدة (أم الأب ، أو أم الأم) وسمعت في بنغازي « سيدي » بمعنى عمي أخى أبي .

وفي كثير من البلاد العربية يخاطب السائلون من يروجون « حسنهم » بـ « يا سيدي » (ومن ذلك في مصر : « حسنة يا سيدي » و « شيء يا سيدي ») أن كان السائل رجلاً أو « يا سيني » أن كان امرأة .

وتستعمل في مصر عبارة « سيدي يا سيدي » في أحوال خاصة كالتمريض بحسنة مختالة مزهوة .

ويستعمل في معظم البلاد العربية مختصراً « سيدي » هو « سني » ، ومما هو جدير بالملاحظة أن « سي » في مصر له حالات من الاستعمال ، ولا يجوز أن يعطى محل « سيدي » في بعض الحالات ، فلا يقال « سي ياقوت العرشي » ولا يخاطب الخادم رب الأسرة أو يتحدث عنه ، وخاصة إذا كان رب الأسرة كبير السن بـ « سي أحمد » مثلاً ؛ وأكثر ما يستعمل فيه هذا اللقب احترام الشيوخ خاصة ؛ وقد تحدثت الأم نفسها عن =

== ابتها الشاب : « سى فتحي » وقد تخطبه بهذا اللقب .

أما « السيدتنا » (و « السيدة ») في العامية) فلا يزال كثير الاطلاق على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى الصحابة (سيدنا محمد - سيدنا أبو بكر - سيدنا عمر - سيدنا عثمان - سيدنا علي) وعلى الأنبياء والرسل والملائكة (سيدنا نوح - سيدنا يوسف - سيدنا موسى - سيدنا جبريل) . وقد لاحظنا أن إطلاق سيدنا على هؤلاء قديم . وفضلا عن هذا الاستعمال فإن « سيدنا » تطلق في ريف مصر على معلم الصبية في الكتاب ، و « السيتنا » وهي مختصرة من « سيدتنا » ، تطلق في مصر على أمثال « خديجة » زوج الرسول ، وعلى أمثال « زينب » و « عائشة » و « نفيسة » ؛ ولكن لا يجوز أن تلقب إحدى هؤلاء بـ « ستي » فلا يقال « ستي زينب » الخ .

وقد شاع في العصر الحديث في كثير من البلاد العربية التمييز بين المتزوجة والبكر - لا سيما في لغة الكتابة - بتلقيب الأولى « السيدة » وتلقيب الثانية « الأنيسة » ، وقد ذكرنا أن تسمية الزوجة بـ « السيدة » تسمية جد قديمة ترجع الى العصر الجاهلي . أما « ستي » (مختصر سيدة) و « ستي » (مختصر « سيدتي ») و « ستنا » (مختصر « سيدتنا ») فهي كثيرة الاستعمال في كل البلاد العربية ، وقد أشرنا الى بعض استعمالاتها . ويبدو أنها - أو « ستي » على الأقل - قديمة الاستعمال ، وقد وردت في بيت لأبي العلاء المعري في رسالة الغفران ، قال :

ست ان أعياك امرى فاحمليني زققونا

وقد أطلق لقب « السيد » و « سيدى » على جماعة من غير المسلمين أشهرهم

البطل المسيحي الأسباني رودريجو دياز Rodrigo Diaz da Vivar الذي لقب بـ « السيد » وغلب هذا اللقب على اسمه . وهو من أشهر أبطال فرسان قشتالة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي . وهو نبيل قشتالي (ولد سنة ١٠٢٦ م أو سنة ١٠٤٠ م) ؛ وقد عاون صاحب قشتالة Sancho II Campeador (من اللاتينية Campeator التي كان العرب يكتبونها « الكتنبيطور » - يلاحظ أن النون في هذا الموضع تنطق ميما وهي بمعنى « مبارز » أو « براز ») عاون رودريجو بخالص نصحه صاحب قشتالة على أن يصبح حاكم مملكة « ليون » León وذلك بأسره أخاه الفونسو . ولكن بعد مقتل صاحب قشتالة تولى أمرها أخوه الأسير الفونسو السادس ، وكان يعتقد على رودريجو فتناءه خارج مملكته . ومن ذلك الوقت أخذ رودريجو يحارب المسلمين أو المسيحيين خدمة لطرف ثالث أو خدمة لنفسه . ثم عرض رودريجو خدماته على أحمد بن سليمان المقتدر صاحب سرقسطة Saragossa فضمه المقتدر الى جيشه هو وجنوده المرتزقة . وقد مات المقتدر في نفس السنة التي انضم اليه فيها رودريجو وجنوده ؛ وتولى حكم سرقسطة بعده ابنه يوسف المؤمن ، وظل رودريجو في خدمة المؤمن ، وتولى ابن آخر للمقتدر هو المنذر حكم مقاطعات أخرى . =

وقد اقتضى تحول مصر من النظام الملكي الى النظام الجمهوري حذف « ملكي » (أو « ملكية » وما إليها) من العبارات التي كانت ترد فيها صفة لها فأصبح يقال : « الجمهورية المصرية » و « القصر الجمهوري » و « الديوان الجمهوري » الخ . و « مرسوم جمهوري » و « جيش الجمهورية » و « سلاح الطيران الجمهوري » الخ . وقد نتج عن قضاء ثورة الجيش على الأحزاب التي كانت موجودة قبل قيامها ، وعن تحديدها للملكية الزراعية أن أصبحت بعض كلمات وعبارات تهمة يخاف الناس أن يوصفوا بها مثل « حزبي » ، أو « وفدي » ، أو « اخواني » (من الإخوان المسلمين) ، أو « اقطاعي » ، أو « من كبار الملاك » .

وقد كثر استعمال كلمة « التحرير » مع ثورة الجيش فهناك « هيئة التحرير » و « مديرية التحرير » و « جيش التحرير » . ومن العبارات والكلمات التي كثر استعمالها مع الثورة « الاتحاد والنظام والعمل » و « العزة » و « الكرامة » و « القومية العربية » و « التأمين » (بعد تأمين شركة قناة السويس بصفة خاصة) . واستعملت في مصر عبارات دالة على منظمات لم يكن لها وجود مثل « الحرس الوطني » .

= وما لبثت الحرب أن شبت بين الأخوين وقد تحالف المنذر مع مسيحيين هما ملك أرجون Argon وصاحب برشلونة . وسرعان ما أحرز رودريجو نصرا بينا على أعداء سيده المؤمنين على الرغم من تفوقهم العددي ، وغنم مغنم كبيرة ، وأسر صاحب برشلونة ثم أطلق سراحه متكرما ؛ ولما عاد الى سرقسطة استقبل استقبالاً باهرا وأهدق عليه المؤمن الهدايا ، وعلا شأنه في نظر المسلمين من جنده فأخذوا من ذلك الوقت يلقبونه بـ « سيدي » و (وهي بالعامية « سيدى ») وقد ترجمت الى الأسبانية بـ mio Cid (ويلاحظ أن قصيدة El Cantar de mio Cid المشهورة كانت تسمى أصلا El Cantar de mio Cid) وكثر استعمالها في الأسبانية بهذه الصورة أو بحذف ضمير الملكية وهو mio (الكلام عن رودريجو مأخوذ عن مادة Sid دائرة المعارف الإسلامية) . ومن الأسبانية انتقلت كلمة « سيد » الى غيرها من اللغات الأوروبية .

ومن الملاحظ أن « السيد » كان يطلق في اسبانيا الإسلامية على المسلمين ، ومن ذلك « ابن السيد البطليوسي » العالم المشهور ؛ والكلمة بهذه الصورة ، أي بالالف واللام وبكسر السين ، لا تستعمل في بلاد عربية شرقية كمصر مثلاً ، وهي لا تزال تسمع في مراكش .

وكمما يحدث في كل الثورات والانقلابات فقد طرأ تغير على أسماء الأعلام كأسماء الشوارع والمحلات والأماكن والأشخاص ، فغيرت أسماء شوارع كثيرة كانت معروفة بأسماء أجنبية أو بأسماء مصريين اعتبروا أعداء للشعب كاسرة محمد علي بأسماء تتلاءم والوضع الجديد كـ «طريق الجيش» و «طريق ٢٦ يوليو» و «ميدان التحرير» ؛ وأصبحنا نطالع على واجهات بعض المحلات والمنشآت «مطعم الجمهورية» «كازينو التحرير» «قهوة النصر» «سينما الجلاء» .

واذ كانت مصر لا تتعاون مع روسيا أيام الملكية فقد كان يحيط بكلمات مثل «روسيا» و «روسى» و «سوفييت» و «سوفييتى» و «الشيوعية» و «شيوعى» و «الماركسية» و «ماركسى» شئ من الخوف والغموض، ولكن هذا قد زال بعد ما قام من تعاون بين الدولتين حديثاً .

(٧) ومن عناصر دراسة لغة السياسة ، دراسة اللغة التى تستعملها الدول المتحالفة أو المتجاورة أو التى تربط بينها روابط أخرى غير التحالف والتجاور أو فضلاً عن أحدهما أو كليهما ، فى حديثها بعضها عن بعض ، وفى الإشارة الى ما بينها من صلات . ومن ذلك اللغة المستعملة فى مصر عن السودان ، وفى السودان عن مصر ، واللغة المستعملة فى العلاقات بين الدول العربية والإسلامية . فنحن فى مصر نشير الى السودان بـ «جنوب الوادى» و «الأخ الشقيق» ، والى السودانيين بـ «أخواننا السودانيين» ، ويصفون مصر فى السودان بقولهم «شمال الوادى» . ومن العبارات ذات الأثر فى الشعوب العربية والإسلامية «الرابطة الإسلامية» و «الجامعة الإسلامية» و «الجامعة العربية» و «العروبة» و «الأخوة فى العروبة» و «القومية العربية» و «الدفاع عن العروبة» و «فلسطين الشهيدة» و «وحدة اللغة» و «وحدة التاريخ» و «التاريخ المشترك» و «المؤتمر الإسلامى» ؛ وإن لكل من هذه العبارات تاريخه الذى يجب أن يبين .

(٨) ومما يدخل فى لغة السياسة لغة البيانات السياسية التى تصدرها دولة باسمها ، وتلك التى تصدر بالاشتراك بين دولتين أو أكثر ؛ ولغة المفاوضات الدولية ؛ ولغة قطع العلاقات الدبلوماسية بين دولتين ، أو لغة إعادة هذه العلاقات ؛ ولغة انشاء علاقات دبلوماسية بين دولتين لم تكن هذه العلاقات قائمة بينها ؛ ولغة طلب إبعاد

بعض المثلين الدبلوماسيين ؛ ولغة الاعتذارات الدولية . . الخ .

(٩) كما أن للمصطلحات والاتفاقات الدولية ، حرية وسياسة واقتصادية وثقافية وللصلح ولعدم الاعتداء لغتها الخاصة بها . وهذه اللغة يكثر فيها أمثال «الصداقة» و «المودة» و «الأخوة» و «التحالف» و «المصلحة المشتركة» و «المصلحة المتبادلة» و «تبادل المنافع» و «العدو المشترك» و «تنمية الموارد» و «المساعدة على النهوض» و «إقرار السلام» و «توسيع الاقتصاد» و «العدو المشترك» . الخ . وهذه الكلمات والعبارات ، كما هى الصفة الغالبة على معظم المصطلحات السياسية تغنى الأفكار الحقيقية ، أو هى تدل عليها بطريق آخر ، طريق المجاز ؛ ولذلك قيل أنه ربما لا يبرر أى قسم من أقسام الكلام الإنسانى قول من يقول أن الوظيفة الأساسية للغة هى «إخفاء» الفكر لا «إظهاره» كما يبرره استعمال الكلام فى المجال السياسى .

(١٠) وإن مخاطبة الجماهير للتأثير السياسى تنتظر أن تدرس الدرس العلمى الفصل . ودور «البلاغة» أو الفن الكلامى فى هذا المجال لا يقل عن دور الفيلسوف التى يلجأ إليها الخطباء . إن دراسة لغة كيكرو (ثيرون) لا سيما فى خطبه الكتليلية دفاعاً عن شرفه ومجده السياسى ، وهجوماً على أعدائه وأعوانهم ، وفضحاً لمؤامرتهم وخبثهم لتظهر كيف أمكن للغة فى استعمال خاص لها أن تحدث فى الجمهور تلك التأثيرات التى تركتها تلك الخطب فى نفوس مستمعيها . وخطب الحجاج بن يوسف الثقفى كانت آلة إرهاب ووسيلة ردع وإخماد . وخطب مصطفى كامل وسعد زغلول كانت مثيرة للشعور القومى من رقدته ، وموقظة للنهضة المصرية ، ودافعة بها قدماً .

ومن السمات العامة فى مخاطبة الجماهير للتأثير السياسى استعمال الكلمات التقليدية الغامضة المعنى ، والكلمات ذات الرنين والطين ، وتلوين الكلام بلون دينى وذكر المقدسات ، والإشارة الى الفضائل كالشرف والتضحية والإقدام ، وتنجيد المواقف المشهورة فى تاريخ الأمة ، واقتناص العبارات التى يمكن ثبوتها فى الأذهان

(١) انظر Margaret Schlauch, op. cit., p. 290 والقائل بأن وظيفة اللغة هى إخفاء الأفكار هو تاليران Talleyrand الفرنسى .

الفئة والحياسة الاقتصادية

(١) ان اللغة المستعملة في الجوانب المختلفة والمستويات المختلفة للحياة الاقتصادية تقدم للباحث اللغوي مادة خصبة يؤدي تحليلها الى نتائج قيمة. وهذه المادة يستقيها من أبسط صور النشاط الاقتصادي - كالبيع والشراء في أبسط صورهما وأضيق حدودهما - الى أشدها تعقيدا ، وأوسعها نطاقا كاعمال الشركات الكبرى ، وأعمال المصارف ، وأسواق الأوراق المالية ، والنظريات الاقتصادية . وسيلاحظ أن هذه المادة تتفاوت بتفاوت طبقات المتعاملين ، وبالموضع الحضارى للمجتمع ، وبسوى ذلك من أمور ، وهذا التفاوت ، يتبدى في كل جانب من جوانب النشاط الاقتصادي .

(١) **قطريقة العدد** وما في اللغة أو اللهجة من أعداد ، لا يزالان عند بعض القبائل في مرحلة بدائية ساذجة ، وهما يبلغان عند أعظم الأمم حضارة عالية من التفصيل والتعقيد ، وهذان يختلفان عند أصحاب اللغة الواحدة حسب حفظ المتكلم من الثقافة .

(٢) **ولفة « المساومة »** تقدم مادة طريفة لدارس اللغة ، وسيلاحظ أن المساومة مرتبطة بالبداءة أو بالوان من البداءة ، وأنها ثقل أو تكاد تتلبور في إيماءات ، أو كلمات شديدة الإيجاز ، أو أنواع من الاستفسار في الأمم المنحضرة التي تحيا حياة معتدلة . وسيلاحظ انه في معظم الأحوال تكون « المساومة » عنصرأ أساسيا من عملية البيع والشراء ، ويكون المشتري والبائع على أهبة للمساومة مقدما ، وأن الأمالة فيها تكون أحيانا نوعا من الدسوق في علاقات عن طريق الكلام ، ولونا من التسرية عن النفس ومن ترجية الوقت . وان تصنيف لغة المساومة حسب طبقات البائعين ، وطبقات المشترين ، وحسب مزجة هؤلاء وأولئك وطبائهم ، وحسب السلة موضوع البيع والشراء لأمر واجب على الباحث اللغوي .

(٣) و « **الزيادة** » لها لغتها الخاصة بها ودراستها تظهرنا على وظائف اللغة فريدة .

ودوراتها على الألسنة والأفلام ، واقتباس المشهور المحفوظ من مؤثر الكلام . وقد أوحظنا في استعمال الانجليزية الحديثة في هذا المجال أن الخطباء يلجأون الى ضائير قديمة مثل thee and thou ، والى نهايات أفعال طال العهد على أفعالها (giveth) ، والى تركيبات لم تعد مفهومة هذه الايام مثل ! Wee worth the day ! ، والى عبارات من الكتاب المقدس وأنهم يتحدثون عن الدفاع عن « أبواب » gates المدينة أو « أسوارها » walls مع أنه لم يعد شئ من ذلك قائما ، وذلك عندما يقصدون الى التأثير في الشعور أكثر من التأثير في العقل .

(٤) ودراسة حيل البائع والمشتري والوسطاء ، وألوان مفاظتهم وخداعهم وأفانين غشهم كما تبدو في تسييراتهم اللغوية موضوع له أهميته .

(٥) أمّا « الاعلان » فلغته مجال فسيح للباحث اللغوي . ودراسته في صورته المختلفة ، من أبسطها وأشدها سداجة كنداءات البائعين الى أكثرها تعقيدا وفنية ، تظهر استعمالات للكلام لتحقيق غايات معينة من أهمها جذب الانتباه وحصره في موضوع بعينه ، والتشويق والترغيب ، للحمل على التملك والاقتناء . ان لغة الاعلان تخاطب فينا غرائز وحواس تختلف باختلاف الموضوع المعلن عنه ، فكلام الاعلان عن مأكول أو مشروب يوجه الى حواس غير تلك التي يتجه اليها كلام اعلان عن سيارة أو آخر من دواء ، وهو يثير غريزة غير تلك التي يثيرها هذا أو ذاك . وسيلاحظ في لغة الاعلان اختلافها باختلاف الوضع الحضاري للأمة : فننداءات البائعين الجائلين في الجماعات البدوية والقرية منها يكثر فيها اللجوء الى المجاز والتشبيه والى السجع وغيره من ضروب الترصيع ويبرز فيها على الصلة الأمثلة في المناداة ، والتغنى والتلذذ بالكلام . أما المجتمعات التي قطعت من المدنية شوطا كبيرا وتمقّدت أمورها ولم يعد لها من الوقت ما تضيّعه في النداء وفي الاستماع اليه ، وقل فيها دور البائعين الجائلين ، فننداءات هؤلاء فيها تقتصر على أوجز عبارة وأدلها .

ثم ان نداءات البائعين تختلف باختلاف حظ الجماعة وحظ البائعين أنفسهم من الذكاء والحيوية : فالجماعات المولعة بالكلام وبـ « القصاحة » والفكاهة نجد فيها أمثلة رائعة على المناداة على السلع ، أما تلك المعروفة بالميل الى الاقتصاد في الكلام ، والى الانقواء على النفس والى التزمّت والتوقر ، والى النفور من الصراخ والضجيج فهي قليلة الحظ من الابتكار في هذا المجال .

ومن النداءات المسموعة في الاسكندرية ، بالعامية ، والتي يتضح فيها اللجوء الى التشبيه والمجاز ، والوصف بالجودة ومما أشبه بالنزل ، المناداة على السمك البلطي : « يا غريم السلاطة يا بلططي » ، وعلى العشب : « يا بيض اليمام يا عيب » ، وعلى البلح « الأمهات » الذي يسيل شهوا به « يا مين يعجيب الأكاجير ! » وعلى الفول المدمس : « اللوز ! » وبـ « الزغليل ! » . ومن

الملاحظ أن من البائعين من يخلق نداءات جديدة ، ولا يكتفي بترداد المحفوظ المتوارث منها ، ومن ذلك أني سمعت في الاسكندرية بائع « شمام » ينادى على سلخته وهو يحلق في حسنة مارة أمامه ويعرض بها بقوله : « مين برّه حليو ومن جوّه شهّد ! ومن النداءات ما يكتفي بذكر اسم السلعة ومن ذلك في مصر « حليب » ، أو بذكرها مسندة الى البلد الذي ينتجها مثل « أسيوطي يا بلّح » و « فيثومي يا عنب » ، أو كذلك مضافا اليه وصفها بالجودة مثل « الكتاكيت الفيثومي عال » . وقد لاحظت أن أكثر المنادين على السمك في مدينة بنغازي بليبيا يكتفون بذكر الاسم مكررا سريعا « حوت حوت ! بوري بوري ! »

وكثير من النداءات على السلع في مصر يخاطب العاطفة الدينية فيتردد فيها الصلاة على النبي والتغنى ببركته مثل « صلاة النبي عليك يا عنب » و « صلاة النبي أحسن » و « صلكي على النبي » و « صلي على المصطفى » و « صلي على الزين » و « النبي حارسك يا مسنمين » . وعبارة « يا سلام عليك يا » مردوفة باسم السلعة طريقة مألوفة من النداء في مصر .

أما الاعلان المسموع عن طريق الراديو ، في بعض الأمم فهو لا يسف الى طريقة البائعين الجائلين ، ولكنه في أغلب الأحيان لا يكون جادا كل الجد ، انما يعتمد أكثر ما يعتمد على العرض الرزين المشوّق معا ، وقد يتخذ صورة حوار بين اثنين أو أكثر ، وقد تصحبه موسيقى ، وقد يظهر كله أو جانب منه في صورة أغنية أو « مونولوج » .

أما تلك الاعلانات المكتوبة على واجهات المحلات ، أو المطبوعة في أوراق خاصة توزع على الجمهور أو على أدوات معينة كالتقويمات ، أو في الصحف والمجلات ، وتلك التي تشاهد في السينما والتلفزيون فهي تشترك في صفات لما كانت جميعا تعتمد على الكتابة وينفرد كل منها بصفات حسب طبيعته المتميزة . ولغة الاعلان بكل طريقة من هذه يجب أن تدرس أولا على حدة .

ان اللغة المكتوبة تخاطب العين وهي لذلك تعتمد على الخط واللون والرسم والتصوير والزخرفة والضوء ، ويجمع توجيه الخطاب الى العين والأذن معا في اعلانات السينما والتلفزيون .

ومن الملاحظ أن الاعلانات المكتوبة على واجهات المحلات تختلف باختلاف الأحياء في المدينة الواحدة ، وباختلاف مستوى المحل والمتردد على عليه ، والمتطلع الى واجهات المحلات في حي سيدنا الحسين بالقاهرة يجد مكتوبا على الكثير منها اعلان متصل بالجو الديني لهذا الحي ومن ذلك « كئل كبدك وكلاوى زين » ، وصلى على سيدنا الحسين « و « كئل كبدك وكلاوى زين واقرا الفاتحة لسيدينا الحسين » . وهذه العبارات المستعملة في حي الحسين لا تستعمل في محلات شارع فراد وميدان التحرير . فالأصناف « الراقية » تلجأ الى اعلانات فيها شيء من الجدد والوقار ، ولكن هذا لا يحول دون استعمال الكلمات والعبارات الجذابة ، والغريبة أحيانا ، ومن ذلك تسمية محل : « من غير اسم » .

وثمة طبقات من المحلات والبيئات تلتزم الجدد في اعلاناتها ، ومن ذلك الصيدليات ، أما لأنه لا يجوز لها أن تظهر صفة التنافس ، وأما السوى ذلك من الأسباب . والاعلانات في الصحف والمجلات والسينما والتلفزيون يكون الكلام جزءا منها ولا يكون كل شيء ، انه عنصر من كل متكامل — أو يجب أن يكون كذلك — فالرسم والصور والألوان وتنسيقها ، وتنسيق ذلك مع الكتابة له دلالاته .

وللإعلان من طريق السينما والتلفزيون امكانياته الخاصة اذ يجتمع فيه الكلام المسوع ، والتصوير المنقور ، وهذا يستلزم ما يمكن استغلاله من الفن الكلامي بالإضافة الى ما يمكن استغلاله من التصوير والتشيل والغناء والموسيقى والرقص .

ومن أول ما يلاحظ في لغة الاعلان المكتوب أنه يكثر فيه استعمال الحروف الكتابية وعلامات النقط والترقيم استعمالا مخالفا للماثولف في الكتابة العادية . فالكلمة أو العبارة قد تكتب — في العربية مثلا — مقطعة الحروف حرفا حرفا لا موصولة الحروف ، وقد تكتب بصورة تختلف عن صورتها العادية اما ملائمة للمادة التي تكتب بها خشبا أو حجرا أو معدنا أو غير ذلك ، واما مراعاة للموضوع المعلن عنه ، أو لهذين مما . أما علامات النقط والترقيم فقد اكتسبت في لغة الاعلان دلالات جديدة : فقد يبدأ الاعلان بعلامة استفهام ليس قبلها كلام ، أو بعلامة تعجب ، أو بهما معا ، أو بمجموعة من النقط الأفقية ، أو بمجموعة من النقط الأفقية تعقبها علامة استفهام أو علامة تعجب . ومن الملاحظ أن علامات الاستفهام

والتعجب كثيرا ما تضاعف متوالية في الاعلانات المكتوبة .

ولا شك في أن الاعلان — أيا كانت صورته — يراعى فيه تناسبته الموضوع المعلن عنه ، والأمثلة كثيرة على أن عدم التوفيق في اختيار الاسم أو الاعلان يؤدي الى الفشل والكساد ، بينما يؤدي التوفيق فيه الى الشهرة والاقبال .

(٦) ان دراسة اللغة المستعملة في توجه النشاط الاقتصادي ممتوجة كذلك الى دراسة ألوان من الكلمات والتعبيرات تمتاز بالجفاف بالقياس الى ما قدمنا الكلام عنه . فلا بد من حصر جميع المصطلحات الخاصة بكل وجه من وجوه هذا النشاط وتقويم التقويم الصحيح ؛ ويدخل في ذلك مصطلحات التعاقد والاستثمار والشحن والتأمين ، ومصطلحات المراسلات ، ومصطلحات التسجيل في الدفاتر ، والمصطلحات المستعملة في « الفواتير » وفي الشهادات الخاصة بجودة السلع وسلامتها ووزنها ، ومصطلحات التقاضي حال الخلاف . وما من شك في أن دراسة مصطلحات النظريات الاقتصادية نفسها من ألزم الأمور وأهمها .

(ب) ولغة كل من الحيوان الزراعي والصناعية تمثل ألوانا من العلاقات بين اللغة والمجتمع بعضها يتمثل في استعمال اللغة في غير هذين المجالين ، وبعضها يتضح فيها أجلى مما يتضح في سواهما .

(١) من المعروف أن لكل من هذين المجالين ، بل لكل فرع من فروعهما مفرداته الخاصة ، وأن من هذه المفردات ما لا يتملحه ولا يعرف مدلوله الا أصحاب هذين النشاطين وبعض من يقدر له الاتصال بهم في شئونهما ، وان كانت هذه الظاهرة تحتاج الى من يدرسها دراسة مفصلة مستوعبة . ولكن الأمر أبعد من هذا وأعق ؛ فالغالب أن الكلام الذي يستعمله كل من أصحاب هذين النشاطين — بما فيه من تركيبات خاصة واستعارات وتشبيهات وأمثال ، بل بما فيه من طريقة نطق الكلمات ولو كانت من مفردات اللغة المشتركة الشائعة — قال على صله وعلى طبقة

(١) اورد الأستاذ على عبد الواحد واق في هامش من ١٥١ من كتابه « اللغة والمجتمع » الطبعة الثانية من ردة ومنشعة نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه (١٩٥١) بعض مفردات خاصة بالصيدان والبحارة المصريين نقل بعضها من مقال للأستاذ ابراهيم محمد الفحام وسجل بعضها بنفسه من لغة بحارة رشيد .

الاجتماعية ، وان اختلفت الدلالة نسبة باختلاف الأفراد والظروف والعصور .

(٢) ومن شواهد اختلاف لغة اصحاب الحرفة الواحدة باختلاف العصور أنه عندما تكون الحرف والصناعات وقفا على أمر معينة يتوارثونها فان لهجاتهم تكون أشد تميزا لهم منها عندما يسمح المجتمع لمن يشاء بالاشتغال بالحرفة أو الصناعة التي يختارها . وهكذا اذا قارنا بين كلام أصحاب حرفة معينة في القرن التاسع عشر في مصر بكلام المشتغلين بهذه الحرفة نفسها في مصر اليوم فانا سنجد فروقا مردها الى هذا السبب نفسه فضلا عن تلك الراجعة الى التطور التاريخي العام .

(٣) والأمثال التي يستعملها الزراع والصناع ، بل كل فئة من فئات الزراع ومن فئات الصناع ، من أطرف الموضوعات الجديرة بالدراسة . ومن هذه الأمثال ما يستقيص فيصبح جزءا من « اللغة العامة » تستعملها الجماعة على اختلاف طبقاتها ، ومنه ما يظل محصورا في بيئته لشدة لصوقه بها أو لغير ذلك من الأسباب . وهذه الأمثال ، كسواها ، تنتم بمسبب المحافظة والتوارث ، إلا أنه مما لا شك فيه أن التغيرات الكبيرة التي تصيب هاتين الطبقتين ، كالتوسع في استعمال الآلات في الزراعة ، وكالاتقلاب الصناعي ، لها آثارها في استحداث أمثال جديدة وفي لهجتهم الخاصة على وجه العموم . ومن واجب الباحث اللغوي أن يربط كلا بأصله ومسببه .

(٤) ومن الملاحظ أن لسلك من الزراع والصناع ، كالنجار ، رموزهم الكلامية الخاصة بهم التي ينحصر فهم مدلولاتها فيهم وفيمن يتصل بهم ، كما أن لهم تعبيرات كلامية تستهدف التهمك على غيرهم من سائر الطبقات الاجتماعية . وهذه الرموز والتعابير قد تكون من وضع أفراد منهم ، وقد تكون مأخوذة من لغات أجنبية ، وقد تكون استعمالا خاصا لكلمات وتعابير من كلمات اللغة العامة وتعبيراتها .

(٥) ومن أهم ما يجدر بدراسي اللغة الالتفات اليه ، والعناية به ، أن الكلام في كثير من وجوه النشاط الزراعي والصناعي يكون جزءا من العمل : فحديث الفلاح الى بهيمته وآلته ، وغناؤه عند الحرث والري والحصد ، وكلام الحداد عند الطرق والنفخ في الكور ، وغناء « الفعلة » الذي يقوده رئيس لهم ، كل ذلك وأمثاله جزء من العمل معين على اتمامه . ومن الواجب أن يجمع كل صنف من صنوف هذا

النشاط اللغوي — في كل لغة — وأن يفسر موصولا بالظروف التي يستعمل فيها ، وبالوظيفة التي يؤديها .

(٦) والصناعات والحرف من أهم أبواب الاحتفاظ بالكلم القديم ، كما أنها من أهم أبواب دخول الكلم الحديث أجنيا كان أو أصيلا . فمن الملاحظ أن الجماعة التي تتغلب على لغتها لغة أخرى تحتفظ ، بعد سيادة اللغة الطارئة ، بكثير من مفردات اللغة الأولى ، ومنها ما يتعلق بالحرف والصناعة والزراعة ، وخاصة اذا كان أصحاب اللغة المتغلبة أدنى شأنًا في هذه الأمور . فالعامية المصرية قد احتفظت بكثير من الكلمات القبطية المتعلقة بالزراعة (كأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية) وبالصناعة ، والعامية العراقية استبقت كثيرا من الكلمات البابلية والآشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

(٧) والصناعات وفنون الزراعة التي تأخذها جماعة عن أخرى تنتقل معها ، في الأغلب ، أساؤها الموضوعية لها في لغة المأخوذ عنهم ، كما أنها تكون مثيرة الى وضع كلمات جديدة . وهكذا فالإقلاب الصناعي الحديث الذي كانت أوروبا مهدا له ، وتأثر به معظم أمم العالم ، نقل معه الى كثير من اللغات كلمات من لغات أوروبية مختلفة . واذا نظرنا الى العربية في مصر ، عاميها وفصيحتها ، وجدنا فيها كثيرا من الكلمات الفرنسية والانجليزية والاطالية والالمانية واليونانية ، وغيرها ، المتصلة بالهندسة والميكانيكا والآلات الصناعية الحديثة المأخوذة عن الغرب (مثل : ديزل — تئك — دريكسيون — ستيرن — جير — بستشن الخ) . كما أن هذا التأثير بالتطور الصناعي الحديث دعا الى تغيير مدلولات كثير من الكلمات العربية ، والى اشتقاق كلمات جديدة من أصول عربية خالصة . ولما اتخذت مصر الزى الأوروبي الحديث سرت في لغة النخيلين المصريين كلمات غربية أكثرها من الايطالية (مثل : مزور — فودرة — فرساليا — سكوندو بروقه الخ) .

اللفة والحياة الدينية

(١) الدين مجال نستعمل فيه اللفة بما لا تستعمل في سواه فالدين وثنا كان أو سماويا ، موحدا أو معددا ، قديما أو حديثا له بطبيعته أسلوبه المتفرد المستقل . فالعلاقة التي يقيمها الدين بين الفرد وبين قوة عليا في يدها مصائر وأقدار ، ويجب لها القربى والخشوع : ولها آياتها وأحكامها ، وأقوالها وأعمالها ، وعقابها ونوابها ، ويضفي الايمان بها على النفس سكونا وصفاء ، وبهها قوة ومضاء ، ويدفعها في حالات الى التضحية بالنفس والمال والولد راضية مستبشرة ، هذه العلاقة لها لغتها ، لا في الكلام المضاف الى المعبود وحده ، بل في كل كلام متعلق بأى شأن من شئونها .

والكلام « المقدس » عند كل جماعة نموذج رائع من نماذج البيان ، وهو بالقياس الى الروائع الأدبية الماثورة عن أى جماعة في العصر الذى يشهد الكلام المقدس من أروعها أو هو أروعها على الإطلاق .

(٢) ومن أهم ما يلاحظ على لغة الدين استعمالها لكثير من الكلم الفاضل الخفى ، ومنه كلمات وعبارات مخلوقة غير مستعملة في اللغة العامة (وذلك كاستعمال الحروف المقطعة في أوائل بعض السور القرآنية : يس - طسم - الم - الر - كيعص الخ مما لا يعرف معناه على الحقيقة ، وأوله المفسرون والدارسون قديما وحديثا تأويلات كثيرة) . ومن ذلك استعمال كلمات قديمة ، واستعمال كلمات من لغات أجنبية ، وذلك كما تستعمل العربية في لغة السحر والكهانة والتنجيم كلمات من أصول سريانية . والمطلع على الشعر الدينى لامية بن ابي الصلت الثقفى الجاهلى يجد عشرات من المفردات لا يجدها عند سواه من شعراء العصر الذين لم يقولوا فيها قال ١ .

(١) أتيج لى دراسة الغريب في شعر امية بن ابي الصلت من حيث تأثيره في موسيقى الشعر في رسالتى التى حصلت بها على درجة الماجستير : (وموضوعها : الصناعة الشعرية في العصر الجاهلى من حيث الموسيقى وبشبه القصيدة) ، ولما كانت هذه

الرسالة لم تنشر بعد فانا أنقل عنها فيما يلى ما كتبه في هذا الموضوع سنة ١٩٤٧ : قلت :

« المفعول في الايقاع الشعري على اصوات الكلمات وطريقة نظمها ، واللف الاذان الكلمات يفقدها كثيرا من قيمها الصوتية ، ومن هنا كان الشاعر في حاجة الى منبع متجدد يستقى منه أصواتا خلاية ، وانه يقع على هذا المنبع في غريب المفردات . وقد تكون الغرابة نتيجة الجودة ، او الندرة ، او ان الكلمة اجنبية ، او محلية ، او صعبة ، او مركبة ، او غير مالوفة الاشتقاق . وخير مثال في الشعر الجاهلى لاصطناع الغريب هو امية بن ابي الصلت الثقفى .

امية شاعر حكيم كان عالما بالحنيفية ، واتصل بأهل الكنائس من اليهود والنصارى ، وقرأ الكتب الدينية القديمة ، فكره الاوثان ، واصبح موحدا يذكر الآخرة والحساب والثواب والعقاب . وكان يطمع ان يكون هو ذلك النسي المنتظر فلما لم يكنه اغتباط وتأسف واشتد حسده للرسول وناصبه العدا ، ولذا قال فيه الرسول : « ان كاد امية ليسلم » وقال : « آمن شعره وكفر قلبه » .

ان شعر امية الدينى صادر عن ثقافة حنييفية يهودية نصرانية ، وهى ليست ثقافة سطحية ، فانه - كما تقول الروايات - كان يقرأ الكتب القديمة ويتمتها ، فكان يعلم من الموضوعات الدينية وعنما ما لا يعلمه غيره من شعراء عصره . كان امية كثير الايراد للقصص الدينى ، ولم يكن بعض هذا القصص منتشرا بين العرب كما ينضح مما قاله ابن قتيبة في الشعر والشعراء (ص ١٧٦ - ١٧٧ تصحيح مصطفى السقا - ط . المعاهد مصر (الناقة) ١٩٣٢ م) « وأنى بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، وكان يأخذها من الكتب ، منها قوله : (وخان امانة الديك الغراب) . وزعم أن الديك كان نديما للغراب فرهته على الخمر وغدو به ، وتركه عند الخمار ، فجعله الخمار حارسا . وقوله في الشمس :

ليست بطالعة لهم في رسلها الا معذبة والا تجلسد

وقوله :

غيم وظلماء وفضل سحابة أيام كفن واستتراد الهدم
يسفى القرار لأمسه ليجنبا فبنا عليه (علمها) في قفاه (قفاها) يهد
فيزال بدليح ما مضى بجنازة منها وما اختلف الجديد المسند

وواضح انه لا غرابة في الفاظ (وخان امانة الديك الغراب) وسائر الشواهد ولكن القصص هو الغريب .

ولما كان لكل جانب من جوانب الثقافة الفاظ موقوفة عليه ، وعبارات خاصة به ،

= فانا نجد في شعر أمية الديني الفاظا غير مألوفة عند غير من الشعراء كان يحسن بفراستها الأقدمون ، وتناقلوا أمرها فيما بينهم .

وربما كان بعض هذه الألفاظ غير عربي الأصل اخذها عن الحبشية والسيرانية والعبرية .

وتأثير أمية عن هذه الطريق يشبه تأثير الساحر والكاهن ؛ فكلاهما يورد كلمات وصيغا غير مألوفة يضطرب بها السمع واللب ، فيخضع النفس لسيطرته ، ويتركها مبهورة معلقة ، ليسهل عليه توجيهها كيف شاء ؛ وقد يقتضي الأمر اختراع كلمات وتصريفات جديدة للوصول عن طريق موسيقاها الى السيطرة على النفوس .

واذا كان الكثير من المنسوب الى أمية غير صحيح النسبة اليه ، الا ان القدماء أنفسهم لاحظوا غرابية قاموسه الشعري ؛ فإبرادنا لشواهد من شعره تبينا لهذه الغرابية لا يجوز أن يرد استنادا الى كثرة المتحول من شعره ، فالذي يهمنا ان الاغراب اللفظي عند أمية قائم مقرر - ولذا استقطب علماء اللغة من الاستشهاد والاحتجاج بلفظه على الكتاب - سواء كان ما نستشهد به من شعره صحيحا أو متحولا .

ولا يقتصر الأمر عند أمية على استعمال الفاظ غريبة عن العربية ، بل ان بعض الألفاظ العربية التي يستعملها ليست شائعة الاستعمال عند غيره من الجاهليين الذين وصلنا أشعارهم . قال ابن قتيبة (ص ١٧٦ - ١٧٧) :

« واتي بالفاظ كثيرة لا تعرفها العرب وكان يأخذها من الكتب منها قوله . . . ومنها قوله -

قمر وساهور يسيل ويشند

وزعم أهل الكتاب ان الساهور غلاف القمر يدخل فيه اذا انكشف . وكان يسمى السموات صاقورة وحاقورة ، ويقول (وأبدت القورورا) يريد الثمر . وعلماؤنا لا يرون شعره حجة على الكتاب . »

ونحن نورد فيما يلي ثبوتا بالغريب في شعر أمية مرتبا على حروف المعجم :

الأرخ - الأطوم (ديوان أمية بن أبي الصلت جمع بشير يموت - بروت - ط .
الوطنية ١٩٣٤ ص ٥٥) - أمط (ديوان ص ٤٦) - بداح (ص ٢٦) - بديد (ص ٢٦) -
البيقورا (ص ٢٦) - تغنا (ص ٦٢) - مئلد (ص ٢٤) - الثالث (ص ١٨) و « فأط » (ص ٢٦) -
الثلل (ص ٤٧) - الجلاحمة (ص ٢١) - حاقورة (ص ٢٤) - حرمه (ص ٢٦) - حزجل
(ص ٤٦) - الحش (ص ٥٧) - يخرمسي (ص ٥٥) - مدسورا (ص ٣٦) - دسفانا
(ص ٦٢) - دعة (ص ٤٠) - « ذقطنا » و « ذقطنا » (ص ٦٣) - رح رجارح (ص ٢١) -
ردوم (ص ٤٥) - سامور (ص ٢٥) - السراطمة (ص ٢١) - السرافيل (ص ٢٥) =

(٣) ان دراسة كلام المصنوع موضوع غاية في الأهمية فما فيه من الأمر المستعلى ، ومن انتهى المنتشر ، ومن الايجاز المتقصد اثباتا للقوة والاستعلاء ؛ وما فيه من أناليب الترغيب والترهيب ، والحجاج والتبيين ، وما سوى ذلك ؛ كل أولئك يتخذ صورة خاصة تشمر السامع (أو القارئ) أنه في مجال الدين لا في سواه .

(٤) وليس ثمة لغة دينية لا تبرع في استغلال الامكانيات الصوتية للغة التي توضع بها ، كتناج الأصوات ، والسجع ، والقواصل ، وتنفيع الكلام بحيث تحدث الأثر المطلوب اذ كان التأثير الصوتي من أهم المداخل الى النفس البشرية ؛ والأصل في الكثر من الكلام الديني أن يرتتل وينشد موقعا منشا ، مصحوبا بموسيقى أو غير مصحوب ، ومصحوبا بموسيقى ورقص عند بعض الجماعات . وكثيرا ما ينتج عن الرغبة في تحقيق أثر موسيقى معين أن تغيّر الكلمات عن صورتها المألوفة .

ودارس شعر عمر بن الفاروق الصوفي (٥٧٦ - ٦٣٢ هـ) يجدد من الشاعر حرصا على أحداث آثار موسيقية غير تلك التي يحققها الوزن والقافية . وقد يبالغ

= سفورا (ص ٣٦) - السلاطح (ص ٢١) - السليطط (ص ٣٣) - سنفة (ص ٣٥) - شحيطا (ص ٥٠) - الشيزي (ص ٢٧) - صئانا (ص ٦٢) - صاقورة (ص ٢٤) - صلطنا (ص ٤٧) - الصواقي (ص ٢٥) - طخورا (ص ٢٦) - الطرط (ص ٢٦) - عنكال (ص ٥٠) - أملاط (ص ١٩) - عناص (ص ٢٤) - الفراريس (ص ٤٨) - فسيطا (ص ٢٦) - فوفة (ص ٣٦) - الفومان (ص ٤٨) - الترق (ص ١٩) - الكتاب (ص ١٨) - تكر (ص ٢٥) - الملاولة (ص ٢١) - نوخها (ص ٢٣) . «

(عن : محمود السمران : الصناعة الشعرية في العصر الجاهلي من حيث الموسيقى وبنية القصيدة ص ١٢٨ - ١٣٢) نسخة على الآلة الكاتبة محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . وقد اكتفينا هنا بذكر الكلمات الغريبة ولكننا في الأصل أوردنا بعد كل كلمة النص الشعري الذي وردت فيه ، وأشرنا الى موضعها من ديوان أمية في الهامش لا بعد الكلمة مباشرة) .

(١) ومن ذلك ورود « يحضرون » و « أرجعون » بدلا من « يحضروني » و « أرجعوني » في قوله تعالى : « وقل رب أعوذ بك من هزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون . حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب أرجعوني » . « المؤمنون آيات ٩٧ - ٩٩ » . ومنه ورود « أطيعون » بدلا من « أطيعوني » في قوله تعالى حكاية لقول نوح لقومه : « قال يا قوم اني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون » (نوح ٢ - ٣) .

ابن الفارض في ذلك أحيانا الى درجة الاملال والانتقال ؛ وقد تكون صنعتها الموسيقية ، في جملتها ، صنعة لفظية سطحية صارخة ، فهو يكثر من الجناس ، ومن الكلمات المتوازنة وليس بينها جناس ، ومن تقطيع البيت أقساما متوازنة ، كما يلجأ الى التصريح في أواسط القصيدة في بيت أو في بيتين متتاليين أو في مجموعة متتابعة من الأبيات ، وإلى التكرار ، وإلى غير هذا من وسائل اللعب بالكلمات . ولكن له أحيانا رقت صنعتها الموسيقية ودقت فحس إيقاعها في الأذن ؛ ومن ذلك قوله :-

زِدْنِي بفرط الحب فيك تحيرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقه
يا قلب أنت وعدتني في جهنم
أن الغرام هو الحياة فمئت به
قل للذين تقدموا قبلي ، ومن
«عنى خذوا ، وبى اقتدوا ، ولئى اسمعوا»
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا
وأبشاح طرفي نظرة أمثلتها
فقد هشت بين جماله وجلاله
فأدر لحاظك في محاسن وجهه
لو أن كل الحسن يكمل صورة

ان دراسة موسيقى الكلام الديني في كل من موضوعاته المختلفة ، وفي كل لغة على حدها ، موضوع خصب قيم .

(١) «ديوان ابن الفارض» نشر وطبع البابي الحلبي بمصر : الطبعة الاولى سنة ١٩٥٣ ص ٦١ - ٦٢ . ومن ذلك قوله (ص ٦٥ - ٦٦) :

انتم قروضي وتغلبني
يا قبلتي في صلاتي
جمالكم نصب عيني
وميركم في ضميري
أنت في الحى نارا
قلت امكثوا فلعلني
دنوت منها فكانت
تودبت منها كفاحا
صارت جبالى دكا
ولاح سر خفي

انتم حديني وتغلبني
إذا وثقت أصلي
اليه وجهت كلتي
والقلب طور التجلي
لبلا فبشرت اعلى
اجيد هداى لعلني
نار المكنن قبلي
ردوا لىالى وصلى
من هيبه المتجلي
يدريه من كان مثلي

وصرت موسى زمانى
فالموت يمه حياتي
انا الفقير المعنى

هذا صار بعنفي كلتي
وفي حياتي قتلتي
رقتوا لىالى وذلي

ومن قول ابن الفارض في تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك (الديوان ص ٨٦) :

سقتني خميا الحب راحة مقلتي
فأوهمت صبغى أن شرب شرابهم
وبالحديق استغنيت عن فدحي ومن
ففى حان سكرى حان شكرى لغتية
وفيها قوله (الديوان ص ٨٧) :

ولو أن ما بى بالجبال وكان طو
هوى عبرة نمئت به وجوى نعمت
نطوفان نوح عند نوحى كادعنى
ولولا زفيرى أغرقتنى ادمعنى
وحزنى ما يعقوب بث اقله
وأخر ما لاقى الألى عشقوا الى الر
فلو سمعت اذن الدليل تاوهي
لأذكره كرى اذى عيش ازمه

رسيئا بها قبل التجلى لذكت
به حرق أدواؤها بي اودت
وايقاد نيران الخليل كلوعتى
ولولا دموعى أحرقتنى زفرتى
وكسل بلى أيوب بعض بليتى
ردى بعض ما لاقيت أول محنتى
لآلام أسقام بجسمى أضرت
بمنطعنى ركب إذا العيس زمت

ففى كل مرئى أراها برؤية
هناك أياها بجلوة خلوتى
وجود شهودى ما حيا غير مثبت
بشهادة للصحو من بعد سكرتى
وذاتى بذاتى اذ تحلت تجلست
وعيشها اذ واحد نحن هيتى
منادى أجابت من دعائى وليت
قصص حدينا انما هى قصص
وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتى

ومن قوله في تائيته (الديوان ص ١٠١ - ١٠٢) :

جلت في تجليها الوجود لناظري
وأشهدت غيبي اذ بدت فوجدتني
وطاح وجودى في شهودى وبنت من
وما نمت ما شاهدت في محو شاهدى
ففى الصحو بعد المحو لم اك غيرها
فوصفى اذ لم تدع باثنين وصفها
فبان دعيت كنى الحبيب وان آكن
وان نطقك كنت المناجى كذاك ان
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا

وانظر من تائيته (الديوان ص ١١٢) الأبيات التي تبدأ بقوله :

مواطن أفرأحى ، ومربى مآربى
الى قوله :-

فقد جمعت أحشائى كل صباية
ومما يمثل صنعة ابن الفارض الموسيقية قوله (الديوان ص ١٢٠) :

أذاد عن عذب الورد بأرضه
وربوعه أربى أجل وربيعه
وجباله لى مربع ورماله
وترابه ندى الذكى ، وماؤه
وشمابه لى جنة ، وقبابه
حيا الحيا تلك المنازل والربى

بها وجوى نبيك عن كل صبوة
وأحاد عنه وفي نقاه بقائى
طربى وصارف ازمة اللزاء
لى مرتجع وظلاله أفيانى
وردى الروى ، وفي نراه نيرائى
لى جنة ، وعلى صفاه صفائى
وسقى الولى مواطن الآلاء

(٥) ولغة الدينية أصلها الخاصة في الرمز والجناس ، وكثير من تصويرها لو أخذ على ظاهره القريب لأوقع في الخلط ، أو لم يحدث الأثر المقصود ، وهذا باب من أخطر الأبواب التي يمتنع بها المفسرون والفقهاء ، واعتقاداً على ما في لغة الدين من الرمز والجناس توسع الباطنية وبعض الصوفية في تفسير آيات من القرآن بحيث تلائم مذاهب خاصة ، ومن أوضح الأمثلة على هذا تفسير محيي الدين بن عربي لآيات قرآنية تفسيراً يؤيد مذهبه في « وحدة الوجود » .

(٦) وما تتصف به لغة الدين على وجه العموم أنها محافظة مغلقة في المحافظة ، وأن ما يطرأ عليها من تعديل شيء جد طفيف ، وما يضاف إليها من وقت إلى آخر شيء قليل نادر . ولا نعني بذلك « الكلام » المضاف إلى المعبود فهو بطبيعته مقدس ، تحميه الجماعة أو تحاول أن تحميه من كل تغيير ، وإنما نعني الكلام الديني المستعمل في سائر المجالات الدينية فطبيعة « التقديس » تغلب عليه ولو كان من كلام البشر الذي لا يفترض الدين إبقائه على صورة لفظية واحدة .

ومن تقديس الكلام الديني أن الشعوب الإسلامية التي لا تتكلم العربية كالإيرانيين والهنود والأندونيسيين والإثراك يرددون بعض عبارات دينية باللغة العربية .

وصفة التقديس وما تستتبعه من محافظة هي من أهم العوامل التي دعت الكنيسة القبطية في مصر إلى أن تحتفظ حتى اليوم باللغة القبطية في كثير من طقوسها ومراسمها وعباداتها واحتفالاتها (كمراسم الزواج والممات . . الخ) مع جهل أكثر الأقباط الحاليين باللغة القبطية ، بل مع جهل بعض من يرددون هذه العبارات من رجال الدين بها .

ومن صفة التقديس أن المساس بالكلام الديني مساساً غير لائق في عرف الجماعة يؤدي بفاعله إلى غضب ومقت ومصائب وأضرار ، وبعض ألوان هذا المساس قد يتغاضى عنه ، وينظر إليه على أنه إشارة على طبقة وضعية من الجماعة ، كلفظة الدين الجارية على ألسنة كثير من عامة المصريين « ينعل دينك » (= يلعن دينك) . وربما كانت هذه العبارة في أصلها بقية من العبارات المستعملة أيام تعدد

الاديان في الجماعة ، وربما كان الأصل فيها سب أصحاب دين لأصحاب دين آخر . ومن ذلك عبارة « يا بن الذين آمنوا » وهي عبارة سب في العامية المصرية ترجع لعاقلها أن الأصل فيها سب غير المسلمين للمسلمين ، لما كانت « الذين آمنوا » عبارة كثيرة التردد في القرآن والحديث ، وربما يؤدي هذا إلى فرض آخر هو أنها نشأت على ألسنة الأقباط المصريين سباً من ترك دينه منهم إلى الإسلام بعد الفتح العربي لمصر . ولا شك في أن هذه العبارة وأمثالها يجب تعقب استعمالها تاريخياً للوصول إلى أقدم استعمال لها والظروف المحيطة به حتى تفسر التفسير العلمي الصحيح . وهذه العبارة لا تختص الآن بسب أصحاب دين لأصحاب دين آخر بل يسب بها المسلم أخاه المسلم فقد تسمع في مصر مسلماً يقول لآخر : « اسكت يا بن الذين آمنوا » !!

(٧) ومن جوانب استعمال الكلام في الشؤون الدينية في الإسلام لغة الأذان ، والأدعية ، والصلوات ، وخطب الجمعة ، والأوراد ، والأذكار ، واللغة المستعملة في الحج في مراحل المختلفة ، كلفة السعي بين الصفا والمروة ولغة الطواف ولغة الرجم ، ولغة الدعاء .

ومن ذلك اللغة المتصلة بالموت كالصلاة على الميت ، والكلام الذي يقال أثناء تشييع الجنائز ، وما يقال عند دفنه ، وبعده ، وفي التعزية وفي الشكر عليها . ومن العبارات المستعملة في مصر في مجال التعزية :

« البقية في حياتك » ، « البقية في دين محمد » ، « البركة فيك » « شكركم الله سفيكم » ، « أعظم الله أجركم » .

واللغة المستعملة في عقد القران ، ك تلاوة القرآن وكلمة « المأذون » ، وصيغة العقد ، وكلام المهنيين يبرز فيها طابع المحافظة ، والحرص على توريث عبارات بعينها لتأدية وظائف خاصة .

وفي عبارات التهنة في كثير من اللغات لوز ديني ومن ذلك في مصر : (مبروك - مبارك - الله يبارك فيك الخ) .

إن دراسة اللغة المستعملة في كل حال من هذه الأحوال كفيلا بأن تكشف عن

كثير من الحقائق اللغوية .

(٨) ومن الملاحظ أن كثيراً من العبارات الدينية يعود سبيله إلى السنة الجماعية في أحاديثهم العادية اليومية ، وقد لا يتخلص من بعضها المحدود منهم . وأشهر هذه العبارات يوجد في « الفنيم » فنحن نسمع في مصر بالعامية : واللّه - واللّه - واللّه العظيم - وربنا - والملي خلكك - والنبي - وحياة النبي - وشيألك النبي - والمصنعتي - والمصنعتي - والمصنعتي الشريف - والقرآن - والقرآن الكريم - والكعبة الشريفة والسيّدة زينب - وسيدنا الحسين - والشريسي (من أبي العباس المرسى) وسيدى ياقوت العرشي (وهذان الأخيران كثيرا الاستعمال في الاسكندرية) . ونسمع على السنة الأقباط : والعذرا - والصليبي - والمسيح - وستنا مريم ؛ ومن الملاحظ أنهم يتحاشون النطق بهذه الأقسام المسيحية أمام المسلمين ويستعملون في حضرتهم « والله - والله العظيم الخ » .

والقسم بعبارات دينية خاصة هو الذي تستعمل به شهادة الشاهد في التقاضي ؛ ويستعمل بين جماعات كثيرة كوسيلة لفض المنازعات .

ومن الملاحظ أن القسم - والقسم بأساليب خاصة - يكثر على السنة

النساء . وعلى الباحث أن يفرق بين ما يختص به الرجال وما يختص به النساء ، وما يشترك فيه الاثنان على حد سواء أو على خلاف في الدرجة .

ومن العبارات الشائعة على السنة المسلمين المتكلمين بالعربية « لا حول ولا قوة الا بالله » ، و « استغفر الله » و « أعوذ بالله » و « اتكىل على الله » .

ولغة السائلين جلها عبارات دينية وشعار دينية ؛ ومن عباراتهم المشهورة في السؤال : ليك - أعطنا مما أعطاك الله - يا رب يا كريم - يا كريم - حسنة لله - شئ الله يا سيدى - شئ الله يا أسياد . والرد على السائلين عند عدم إعطائهم من عباراته في مصر : علكى الله - ربنا يديك - ربنا يرزقك ؛ وسمعت من ذلك في ليبيا : ربنا ينثوب - ربنا ينثوب - ينثوب .

ومما يكثر استعماله على السنة المصريين لأطفالهن الذكور في ظروف خاصة : اسم

النبي حارسك وصاينك - اسم النبي حارسك ربنا ينحرسك اسم الله عليك - ما شاء الله . ويقولون في ليبيا اغهاراً للاعجاب بطفل : « ربنا ينثوب » .

وقد تنتقل كثير من العبارات الدينية إلى لغة الغزل والتعريض بالنساء ؛ ومن ذلك في العامية المصرية :

يا دين النبي ! - اسم الله ! اسم الله عليك ! - اسم الله عليها ونكتي مشينيتها ! - يا جمال النبي !

وكلام « المخفين » و « المنجمين » يقوم أكثره على عبارات دينية ؛ فالمبخر المصرى يقول وهو يعطر المكان بيظوره :

اللهم صلكى على النبي - انفتحه للنبي الخ .

ومن الملاحظ في أكثر البلاد الاسلامية استهلال كثير من الكتب والخطب والأعمال بعبارة : « بسم الله الرحمن الرحيم » . كما تترتل في افتتاح كثير من الاحتفالات غير الدينية (كالاحتفالات بافتتاح أبنية أو معاهد) آيات من القرآن الكريم .

(٩) ومن جوانب دراسة الكلام الدينى دراسة ما يقوله أصحاب دين عن أصحاب دين آخر ، وخاصة ان كان هؤلاء وأولئك ينتمون إلى نفس الجماعة ، ككلام المسلمين المصريين عن الأقباط ودينهم ، وكلام الأقباط عن المسلمين ودينهم .

ومما يلاحظ أن الأقباط ، لهذه الأيام ، يخرجون في الأغلب من ذكر العبارات الدينية المسيحية على ألسنتهم أمام المسلمين ، ولو كانت من أساليب القسم . كما أنهم يتحاشون بصفة عامة الرد على تحية المسلمين لهم « السلام عليكم » ؛ « وعليكم السلام » لأنها تحية الاسلام ، ويردون قائلين « سعيدة » ، أو « مع السلامة » ، أو « نهارك سعيد » ، أو ما أشبه ذلك من عباراتهم ، بينما يستعمل المسلمون المصريون بعض أساليب التحية التي يصطنعها الأقباط .

(١٠) وما يتصل بدراسة لغة الدين دراسة كلام الصوفية والزهاد والرهبان ، كلامهم الخاص برياضاتهم النفسية وأحوالهم الدينية ، وكلامهم في سائر الشؤون إنما فيها الشؤون الدينية ، ومن المعروف أن للصوفية ، على الخصوص ، رموزاً كلامية قاصرة عليهم .

(١١) ودراسة كلام التنبيين والزنادقة والملاحدة عنصر من أهم عناصر دراسة اللغة الدينية .

(١٢) وللهواسب الدينية — كالاختفالات بمولد الرسول ، ومواليد « الأولياء » ، وعاشوراء ، وليلة القدر ، وشهر رمضان ، والعيدين — كلامها الخاص ، بل إن كلاماً من هذه وأشباهاها لينفرد بكلام .

(١٣) وثمة مجال كبير لدراسة لغة الحياة الدينية يتشمل في دراسة الكتابات عن الدين وما يتعلق به ، كدراسة اللغة المستعملة في الفقه ، والحديث ، والتفسير ، وعلم الكلام . ومن واجب الباحث المعقود كذلك أن يبين ما تلجأ إليه الفلسفة الدينية من أساليب الحجاج دفاعاً عن مذهب وهجوماً على آخر ، وإثباتاً لقضايا الدين ، ورداً على المنكرين . . الخ ، وأن يدرس تطور ذلك كله وأشباهاه على مر العصور .

الكلام الحرام

(١) لا يخلو مجتمع إنساني من تحريم موضوعات معينة ومن تجنب وتقنين بعض المبادئ والكلمات المتعلقة بهذه الموضوعات . والبحث في هذه العبارات والكلمات التي يتجنبها ويقنعها المتكلمون بلغة من اللغات يتعلّق بأمر منها جميع العبارات والكلمات التي يصطنعونها بديلاً مما يتجنبونه وجميع تلك التي يقنعونها ، وتحليل ذلك كله ، ومحاولة الوصول إلى الأصول البعيدة والقريبة في حياة المجتمع ، هذه الأصول الداعية إلى هذا التجنب وذلك التقنين .

وما تجنب كلمات وتقنين أخرى أمراً قاصراً على من يسمون بالشعوب الوحشية أو البدائية أو الفطرية بل إنه ماثل في كل المجتمعات أياً كانت درجتها من المدنية . وما من شك في أن كثيراً من دواعي تجنب بعض العبارات والكلمات واختلافها راجع إلى التوراث ، وفي أن الأغلب أن سببها البعيد كان الخوف من بعض القوى غير المنظورة كالأرواح وطائفة من المقدسات عندما كان يظن أنها تنصرف في حياة الناس وأنها قادرة على أن توقع بهم الضرر ، واستمر أثر هذا الخوف القديم قائماً في نفوس أكثر البشر . كما أن الاعتقاد القديم بأن لبعض كلمات اللغة قوة سحرية ذو دخل كبير في هذا الشأن .

ومن التصرف أن يحاول الباحث تفسير جميع ما يتجنبه ويقنع مجتمعات من المجتمعات من كلمات وعبارات بعوامل مستقاة من الحالة الراهنة لهذا المجتمع فلا شك في أن جانباً من هذه العبارات والكلمات المرد في تجنبه وتقنيته إلى عوامل قديمة متوارثة قد لا يكون من اليسير تعقبها وتحديدتها على وجه اليقين ؛ ولكن ما من شك في أن جانباً من هذه العبارات والكلمات المرجع في تحريمه إلى عوامل قائمة في هذه المرحلة من مراحل تطور المجتمع .

ومن الملاحظ أن كثيراً من المجتمعات يشترك في تحريم كلمات وعبارات متعلقة بموضوعات معينة كاللوات ، والأمراض الخطيرة والخبيثة ، والأرواح لا سيما

الشريرة ، وبعض الوظائف الفسيولوجية للجسم الانساني وشيء مما يتصل بها من
اعضاء . فكثير من الشعوب تستعمل عبارات لينة بارعة تجنباً لاستعمال الكلمتين
السيئتين « يموت » و « يمرض » ، ففي الانجليزية مثلاً يستعمل بدلاً من الكلمة
المقابلة لـ « يموت » كنايةات مثل passing on أو passing away
أو being taken away ١ .

والعربية الفصحى في الوقت الحاضر — وفي اعلانات النعي على وجه الخصوص —
تتجنب كلمة « مات » وتستعمل موضعها « توفي الى رحمة الله » أو « توفاه الله »
أو « أسلم الروح » أو « ذهب الى جوار ربه » الخ ؛ كما أنه يدل فيها على « مات »
بـ « قضى » أو « قضى نحبه » أو « رحمه الله » . وفي العامية المصرية قد أجيب سائلاً
يسألني عن لا يعلم أنه مات بقولي « البقية في حياتك » ، أو « الله يرحمه » .

ويتخرج كثير من الأمهات المصريات من ايراد كلمة « الحصبة » على ألسنتهن
ويستعملن بدلاً منها « المبروكة » ! والسبب من الأمراض التي تكنى عنه كثير من
اللغات بالاشارة الى شدة السعال والبصق وضعف الصدر وغير ذلك .

والخوف من « الجن » و « الأرواح » و « الشياطين » و « العفاريت » غالب
على معظم الشعوب . والمصريون لا سيما النساء يدلون على الجن بـ « الأسياد » ،
كما يدلون عليهم أحياناً بـ « الأخوات » اشارة الى الاعتقاد السائد بأن لكل من
الانس أخاً من الجن ؛ وهم عندما يتوهمون أنهم قد يدوسون أحداً من الجن أو
قد يقتحمون عليه موضعه يقولون مستأذنين « دَسْتَوْرَكُم يَا مَبَارَكِينَ » ؛ كما
يشيرون الى « العفاريت » أحياناً بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » .

إن كثيراً من المجتمعات — أو كثيراً من الأشخاص في كثير من المجتمعات — لا
يزال يخشى ما كان يخشاه كثير من المجتمعات الانسانية القديمة من حلول الشر والضرر
نتيجة للتصريح بكلمات وعبارات تدل على الشر والضرر كالموت والأمراض والشياطين .
ومن مظاهر هذا تلك العبارات التي تطلقها المصريات لو لفظ أمامهن — ولو على
سبيل الحكاية عن غريب — باسم مرض خطير كالسل أو الحصى « الشر بره وبعيد ! »

أو « صَلَّى عَ النَّبِيِّ ! » أو « تَرَفَّ مِنْ يَثْقَكَ ! » أو « اللهم احفظنا ! » .
والعملية الجنسية ، وأعضاء الذكورة والأنوثة ، والحيض ، والتبرز والتبول
يوجد لها في كثير من اللغات كنايةات تقادياً للتصريح بأسمائها ؛ وقد يكون شيء من
ذلك من قبيل التأدب لا قبيل الخوف .

(ب) « اللائق » و « غير اللائق » من الكلام

ويتصل بموضوع « الكلام الحرام » تلك العبارات والكلمات التي يعدها
مجتمع من المجتمعات « غير لائقة » في مجالات خاصة ، والتي يرى في النطق بها
جفوة أو غلظة ، أو سوء أدب ، أو ما هو من ذلك بسبيل .

ومقاييس « اللباقة » و « عدم اللباقة » فيما يتعلق باللغة تختلف باختلاف
العصور ؛ وهي في كل عصر تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية في المجتمع الواحد ،
وباختلاف اللهجات المحلية ؛ كما يشترك في تحديدها عوامل أخرى كثيرة : فانه
يسوغ بين جماعة من الذكور أو بين جماعة من الاناث النطق بعبارات وكلمات ولا
يسوغ نطقها لو ضم المجلس شخصاً أو أكثر من الجنس الآخر ؛ وبعض ما يتكلمه
الرجل وزوجته حال انفرادهما لا يستعمله أحدهما أو كلاهما في ظروف أخرى ؛ وقد ينصح
الصغار بتجنب عبارات وكلمات لا يكون في تقوهم الكبار بها غضاضة ؛ وقد يؤذن
للرجال بنطق ما لو نطقت به النساء لكان غير لائق ، كما يؤذن للنساء بنطق ما لو
نطق به الرجال لعد غير سائغ ؛ ويقع فيما يدور بين المريض وطبيبه من حديث
كلمات وعبارات لا يوردها كل منهما على لسانه في مجالات أخر .

إن مقاييس اللباقة وعدم اللباقة في المجتمع الكلامي الواحد متعددة ومعقدة ،
ومما يزيد البحث فيها صعوبة أنها تتداخل أحياناً مع ما ذكرناه من اعتبارات الخوف
الداعية الى التحريم والتقيع .

وهذه المقاييس متطورة بطبيعة الحال ؛ وعلى الباحث أن يستقصى العوامل
الغيرة لها ، وأن يبحث عن آثارها اللغوية . ومن أهم هذه العوامل انتقال المجتمع
من الفصل بين الذكور والاناث الى اباحة الاختلاط بينهم ؛ فكثير مما كان غير لائق
في الحالة الأولى يرى عادياً في الحالة الثانية . والملاحظ أن ما نالته المرأة في

الضمائر والمستويات الاجتماعية

(١) يظهر الكلام المستويات الاجتماعية لأصحاب لغة من اللغات بأكثر من صورة ومن أهم هذه الصور في كثير من اللغات تصرف الضمائر والصيغ « المستندة إلى ضمائر ». واللغات في هذا الشأن متفاوتة فمنها ما لا يفصل ولا يميز في الضمائر كبير تفصيل وتمييز للتعبير عن المستوى الاجتماعي للتكلم والمخاطب والغائب ؛ ومنها ما يميز شيئاً من التمييز في ضمائر الخطاب على وجه الخصوص ؛ ومنها ما يبلغ باستعمال الضمائر درجة كبرى من التفصيل والتمييز والتعقيد فيتنبه كل من ضمير المتكلم والمخاطب والغائب حسب درجة التكلم في السلم الاجتماعي من المخاطب والغائب .

(٢) وبنا قبل أن نشير إلى ما تجرى عليه العربية الفصحى في هذا المجال أن نزيل وهما من الأوهام قد يكون سببه احساس المتكلم بالعربية ودارسها على الطريقة التقليدية بأنها حريضة ، بصفة عامة ، على التمييز بين المذكر والمؤنث ، وعلى ربط كل من هذين بعدد معين « مفرد » ، أو « مثنى » ، أو « جمع » . قد يقن أن الضمائر يراعى فيها هذا اللون من التمييز ، ولكن الاستقراء يظهر أن هذا التمييز لا يتحقق في حالة الضمائر كاملاً ، بينما كما أنه يظهر أن الضمائر إذا نظر إليها باعتبار التكلم والخطاب والغيبة لا تتفق جميعاً في خصائص واحدة بل يتميز كل منها بصفات . وهذا شاهد بخطأ القول بأن لكل لغة « نظاماً » واحداً تسيّر عليه جميع « أقسامها » ، فالحق أننا نجد في كل لغة مجموعة من الأنظمة ، كما قد نجد في النظام الواحد تفرعات كثيرة أو قليلة .

فإذا نظرنا في ضمائر التكلم والصيغ « المستندة إلى ضمائر التكلم » في العربية وجدنا أنه لا تمييز في حالة المفرد بين المذكر والمؤنث (فانه يقال : أنا — كتبت — أكبت — فأكبت — كتابي — لي — انى — اياى الخ في حالتى التذكير والتأنيث) وأنه لا تمييز بين « المثنى » و « الجمع » وفي كل حالة بين ما هو مذكر وما هو مؤنث ، بل هناك مجموعة من الضمائر والصيغ كل منها يستعمل لكل من المثنى

المجتمعات المنحرفة المختلطة من استقلال اقتصادى ، وتقدم في التعليم ، وسعة أفق في التفكير قد أسهم في تحرير كلامها ، وفي تخليصه من كثير من الصفات الأثوية ؛ ومن ذلك أن كلمة Legs لا يحمر لها وجه الانجليزية خجلاً كما كان يحدث لجدها في عصر سابق .

والجمع بنوعيهما (نحن - كننا - تكتب - فلتكتب - كتابنا - لنا - أنا - إيانا الخ) . ونستطيع أن نقول أن العربية - بهذا الاعتبار - تسوي شيئا من التسوية بين المتكلم والمتكلمة ، كما أنها تُلغى بعض الفوارق بين المتكلمين والمتكلمتين والمتكلمين والمتكلمات .

أما في ضمائر الخطاب والصيغ المسندة إلى ضمائر الخطاب فالعربية الفصحى تميز بين المفرد والمثنى والجمع ، وهي تميز في كل من المفرد والجمع بين المذكر والمؤنث ، ولكنها في حالة المثنى المخاطب لا تميز بين مذكر ومؤنث (انظر الجدول التالي) .

أما ضمائر الغياب والصيغ المسندة إلى ضمائر الغياب فإنها تظهر شكلاً آخر يختلف عن ضمائر التكلم وعن ضمائر الخطاب : فهي أولاً تميز بين كل من المفرد والمثنى والجمع ، وهي في حالة المفرد تميز بين ما هو مذكر وما هو مؤنث ، ولكن هذا التمييز في بعض الصيغ يتأني عن طريق تغيرات في بنية الكلمات جرى النحاة العرب على عدم اعتبارها ضمائر وذلك كالتمييز بين المذكر والمؤنث في كُتِبَ و كُتِبَتْ ، وفي يَكْتُبُ ويَكْتُبُ ، وفي فَلَيتَكْتُبُ وفَلَيتَكْتُبُ . أما في حالة الغائبين الاثنين فصورة ما جرى العرف على تسميته بالضمير واحدة لكلا المذكر والمؤنث ، ولكن صور أنواع من الكلمات « المسندة » إلى الغائبين الاثنين يلحقها تغيير للتمييز بين المذكر والمؤنث مثل كُنَّا و كُنْتَا ، ويَكْتَبَانِ ويَكْتَبَانِ ، وفَلَيتَكْتَبَا وفَلَيتَكْتَبَا ، وفي حالة ضمائر جماعة الغائبين تراعى العربية الفصحى التمييز بين المذكرين والمؤنثين (انظر الجدول التالي) .

ولا يجوز أن يفهم من قولنا أن صورة الضمير قد تكون واحدة بالنسبة للمذكر والمؤنث جميعاً مثل « أنا » ، أو للمثنى جميعاً مثل « هما » ، أن « أنا » للمفرد المذكر تطابق « أنا » التي للمفرد المؤنث من جميع الوجوه وبجميع الاعتبارات فهما وإن كانتا متطابقتين من حيث الصورة إلا أن الأولى متباعدة من الثانية من حيث الوظيفة ومن حيث علاقاتها بسائر الكلم في التعبيرات التي تقع فيها ؛ فانه وإن صح لكل من محمد وزينب أن يقول « أنا أعلم » إلا أن محمداً يقول « أنا كريم » وتقول زينب « أنا كريمة » ، وهو يقول « أنا الذي » .

بينما تقول هي « أنا التي » . . . وهكذا .

و « نحن » وإن كانت على هذه الصورة للمثنى والجمع بنوعيهما - وإن كان في بعض التركيبات لا يوجد مميز شكلي يحددها مثل « نحن نعلم » فهي صادقة على المثنى بنوعيه والجمع بنوعيه - إلا أن بعض الاستعمالات تحدد أن « نحن » هنا للاثنتين ، أو لجماعة الذكور أو لجماعة الإناث وذلك مثل « نحن اللذان - نحن اللتان - نحن الذين - نحن اللاتي » . . الخ .

والجدول التالي يبين توزع الضمائر والصيغ المسندة إلى الضمائر في العربية الفصحى حسب التكلم والخطاب والغياب ، وحسب الافراد والتثنية والجمع في كل حالة من هذه وعلى أساس التذكير والتأنيث . ويتضح من هذا الجدول ما أشرنا إليه .

(٢) ونشرع الآن في عرض تخطيط عام لدراسة الضمائر في العربية الفصحى من حيث أظهارها للمستوى الاجتماعي للمتكلمين والمخاطبين والقائمين . ومن أوجب ما على الباحث في هذا الموضوع أن يدرس هذه الدلالة للضمائر في كل عصر على حدة ، وأن يدرسها في كل فن من فنون القول وفي كل وظيفة من الوظائف الكلامية على حدة ؛ وأن يراعي في كل حالة سياق الكلام والوضع الاجتماعي للمتكلم بالنسبة إلى المخاطب والغائب و ... الخ ؛ فمن الخطأ أن نستدل باستعمال الضمير استعمالاً خاصاً في العصر الحديث على أنه « العربية » تذهب هذا المذهب أو ذاك ؛ كما أنه من الخطأ أن نستخلص من دلالة خاصة للضمير نجدها في شعر عصر من العصور أن هذه الدلالة تصدق على الضمير في كل العصور وفي كل وظائف الكلام ، وأنها « لازمة » للأسلوب العربي وقد نفل على هذه الدلالة في المستقبل كذلك .

١ - إن استخلاص الدلالة الاجتماعية للضمائر في العصر الجاهلي تستلزم أن نميز بين أنواع كلامية بيئة الاختلاف فندرس ذلك في الشعر مستقلاً ، وفي الخطب مفردة ، وفي الأمثال على حدها ، وفي كل من أوصايا والحكم وحده ، وفي الكتابة وحدها على نثرها ، وفي لغة التخاطب العادي إذا صحت لنا نصوص في هذا المجال . وقد يستوجب الأمر تفريعات خاصة بكل قسم من هذه الأقسام . والقراءة السريعة لنصوص العصر الجاهلي تؤدي بنا إلى القول بأن عربية هذا العصر كانت تدل على المستويات الاجتماعية عن طريق الأسلوب العام واختيار الكلمات أما الضمائر والضمير المستندة إلى ضمائر فلم يكن يلحقها تغيير .

(١) أمثلة من الشعر : قول النابغة في مدح النعمان والاعتدال إليه مع إشارة إلى « الوشاة » ولا تنفي في ذلك كله ضمائر التكلم والمخاطب والغائب .

واتك التي تستك منها المسامع	أنا - أبيت الفن - أنك لتني
وذلك من تلقاء ذلك رائع	مقالة أن قد قلت : سوف أناه ،
لقد نطقت بطلا على الأقارع	أعمرى - وما أعمرى على بهين
وجوه فرود تبقي من تجادع	أقارع موف ، لا أحسارول غيرها
له من عدو مثل ذلك شافع	أناك أمرو مستبطن لي بنفسه
ولم يأت بالحق الذي هو ناصع	أناك بقول حبلل النسيج كاذب
ولو كليت في ساعدي الجوامع	أناك بقول لم أكن لأفعله

التكلم					
المفرد		المتن		الجمع	
المذكر	المؤنث	المذكر	المؤنث	المذكر	المؤنث
أنا	أنا	نحن	نحن	أنا	أنا
كتب	كتب	كتبنا	كتبنا	كتب	كتب
أكتب	أكتب	أكتب	أكتب	أكتب	أكتب
فلا كتب	فلا كتب	فلا كتب	فلا كتب	فلا كتب	فلا كتب
كتابي	كتابي	كتابنا	كتابنا	كتابي	كتابي
لي	لي	لنا	لنا	لي	لي
أني	أني	أنا	أنا	أني	أني
أيك	أيك	أيانا	أيانا	أيك	أيك
الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...

الغياب					
المفرد		المتن		الجمع	
المذكر	المؤنث	المذكر	المؤنث	المذكر	المؤنث
هو	هي	هو	هي	هم	هن
كتب	كتب	كتبنا	كتبنا	كتبوا	كتبوا
يكتب	يكتب	يكتبنا	يكتبنا	يكتبون	يكتبون
فليكتب	فليكتب	فليكتبنا	فليكتبنا	فليكتبوا	فليكتبوا
كتاب	كتاب	كتابنا	كتابنا	كتابهم	كتابهم
له	له	لها	لها	لهم	لهم
أله	أله	ألهما	ألهما	ألهم	ألهن
أيها	أيها	أيهما	أيهما	أياهم	أياهن
الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...	الخ ...

وفي آخر القصيدة :

اتوعد عبدا لم يخنك أمانة
وانت ربيع ينعش الناس سيبه
أبى الله إلا عدله ووفاءه
وتستقى إذا ما شئت غير مضرد
ويترك جسد ظالم وهو ضالع
وسيف "عمرته" المنيعة قاطع
فلا النكر معروف ولا العرف ضائع
بزوراء ، في حافات المسك كاشع

ومن أبيات لدريد بن الصمة وفيها حديث عن قومه وموقفه منهم وموقفهم منه ومن أخيه وأمه ، وروثه لأخيه ، ولا تغيير فيها للضمائر أو للصيغ المسندة إلى الضمائر لظهور هذه المستويات المختلفة :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
وهل أنا إلا من غزية ؟ أن غوت
دعاني أخی ، والخيل بيني وبينه
أخ أرسعتني أمه من لبانها
نجبت إليه ، والرحاح تنوشه
وكننت كذات البو ريمت فأقبلت
فطاعنت عنه الخيل حتى تنهت
قتال امرئ أسى أخاه بنفسه
تنادوا فقالوا : أردت الخيل نارسا
فإن يك عبد الله خلى مكانه
ومن مخاطبة عظيمين قول زهير :

يبيتا لنعم السيدان وجدتما
تداركتما عيسا وذبيان بعدما
وقد قلتما أن تدرك السلم واسعا
فأصبح يجري فيهم من تلادكم
على كل حال من سحيل ومبرم
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
بمال ومعروف من الأمر نسلم
مغاثم شتى من أفال التزتم

ولا نظن أن الضمير في « تلادكم » المقصد منه تعظيم هذين السيدين إنما الأقرب إشارة إلى العشرة .

ومن الحديث عن صاحبة ومخاطبتها قول عنزة :

بكرت تخوفني الخوف كما أنني
أصبحت من غرض الخوف بمعزل

تأجبتها أن المنية منهيل
لا بد أن أسقى بكأس المنهيل
فأنتى حياءك لا أبالك وأعلمي
أنى امرؤ ساموت أن لم أنسل

والضمائر والصيغ المسندة إلى ضمائر في الخطاب والأمثال والحكم والوصايا لا تظهر تغييرا بتغير المستويات الاجتماعية : لاحظ الضمائر في خطبة قس بن ساعدة الأيادي المشهورة (أيها الناس ! اسمعوا وعوا ، أنه من عاش مات ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . . الخ) وفي حكمه : (. . . ولا تشاور مشغولا وإن كان حازما ، ولا جالما وإن كان فهما ، ولا مدعورا وإن كان ناصحا) .

ومن خطبة منسوبة إلى عمرو بن سعد يكره الزبيدي يقال أنه ألهاها أمام كسرى أو شروان يخاطبه فيها : (. . . فاجتهد طاعتنا بلفظك ، واكظم بادرنا بحلمك ، وابن لنا كنفك يكن لك قيادتنا . فإنا أناس لم يورثش صفاتنا قيراع مناقير من أراد لنا فضما ، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضمنا) .

ومن الأمثال الجاهلية :

(أن كنت ربحا فقد لاقيت اصبارا) و (ذكرني فولد حماري أهلي)

و (تحششا لقمان من غير شبع) يضرب لمن يدعى ما ليس بملك . وفي لغة الوصايا المنسوبة إلى الجاهلية من والد إلى بنيه ، أو ابنة أو من والدة إلى ابنتها أو ابنتها لا تتغير الضمائر والصيغ المسندة إلى ضمائر ومن ذلك الوصية المنسوبة إلى زهير بن جناب الكلبى بوصى فيها أبناءه (يا بني قد كبرت سننى ، وبلغت حارسا من دهرى ، فأحكممنى التجارب ، والأمور تجربة واختبار . فأحفظوا عني ما أقول وعود ، إياكم والخور عند المصائب والتواكل عند النوائب . . الخ)

ب — أما في صدر الاسلام فسجد أن من الواجب دراسة استعمال الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر في القرآن وحده وفي الأحاديث النبوية وحدها ، وفي خطاب كل من المؤمنين والكافرين للرسول ، وفي رسائل النبي والخلفاء الى الملوك والأمراء والعمال وحدها ، فضلا عن دراستها في فنون القول الأخرى من شعر ونثر.

وفي لغة القرآن نميز بين المواضع التي يتكلم فيها الله تعالى باسمه من تلك التي يتحدث فيها عن نفسه بضمير الغيبة ، كما نفرد خطابه للرسول من خطابه المؤمنين ومن خطابه الكفار ، ومن حديثه عن أولئك جميعا ، وتفصل خطاب المؤمنين لله ، من خطاب الكفار له ، ومن خطابات الرسول اياه .

وسنلاحظ في تكلم الله جل وعلا باسمه أنه يستعمل أحيانا ضمير المتكلم المفرد وأحيانا ضمير جماعة المتكلمين ، ومن الواجب ربط كل ذلك بظروفه وتفسير الاختلاف في استعمال الضمير والاستعانة بما كتبه المفسرون وعلماء البلاغة في هذا الشأن : ومن تكلم الله جل وعز باسمه بضمير الجمع قوله تعالى : (ان الينا اياهم ثم ان علينا حسابهم . «سورة الغاشية») وقوله : (لقد خلقنا الانسان في كبد . «سورة البلد») وقوله : (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين . «سورة البلد») وفي نفس السورة : والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة ١ .

(١) ومن ذلك :

(انا أنزلناه في ليلة القدر)

(انا اعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شئت لك هو الأبر)

وفي سورة المطففين (اذا تنلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين)

وفي سورة التين : (لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين) .

وفي سورة النبا : (ألم نجعل الأرض مهادا والجيال اوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعا شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفاها) وفي نفس السورة (انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذبا . وكل شيء احصيناه كتابا فذوقوا نلن نزيدكم الا عذابا) وفي السورة نفسها (انا أنذرناكم عذابا قريبا) .

ومن تكلم الله عز وجل باسمه بصيغة المفرد قوله تعالى في سورة الفجر (يايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) . وفي سورة الليل آيات يستعمل فيها ضمير جماعة المتكلمين وفي آخرها آية يستعمل فيها ضمير المفرد المتكلم :

(فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسيره ليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسيره للعسرى وما يغنى عنه ماله اذا تردى . ان علينا للهدى وان لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الأشقي الذي كذب وتولى . . .) .

وفي سورة الأعلى يتكلم الله بضمير جماعة المتكلمين ثم يشير الى ذاته بضمير المفرد الغائب لا بضمير الغائبين ثم يعود الى الكلام بضمير جماعة المتكلمين (سنقرئك فلا تنسى الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى ، ونيسرك ليسرى) .

والله تعالى يشير الى ذاته في القرآن مصطنعا ضمير المفرد الغائب ومسنندا الصيغ الى المفرد الغائب ولا نجد آية من الآيات يشير فيها الله الى ذاته بضمير جماعة الغائبين أو بساند الصيغة الى جماعة الغائبين ومن ذلك ما ورد في الآية السابقة وما نجده في هذه الآيات من سورة عبس : (قتل الانسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسه ، ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره ١) وان كنا نلاحظ أنه بعد هذه الآيات مباشرة أخذ الله في التكلم باسمه بضمير جماعة المتكلمين : (فلينظر الانسان الى طعامه انا صبينا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شققا ، فأنبئنا فيها حبا وعنبا . الخ) .

نرى من هذا أن الله يتكلم باسمه مصطنعا ضمير جماعة المتكلمين مرة ، ومصطنعا ضمير المتكلم المفرد مرة ، ولكن التعظيم واعلاء الشأن لم يثلا مرة في

(١) ومن الأمثلة الشبيهة بهذا قوله تعالى : (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) وقوله تعالى (لا يلاف قرش ايلانهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) و (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أخوى . «سورة الأعلى») . و (انه هو يدي وبعيد ، وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعلم لما يريد . «سورة البروج»)

القرآن ، ولا في غير القرآن ، باستعمال ضمير المتكلمين الاثنين ؛ وقد يعترض على هذا بأن ضمير المتكلمين يطابق في الصورة ضمير المتكلمين الاثنين والرد على هذا أن بعض السياقات تحدد أن المقصود بالضمير هو ضمير جماعة المتكلمين كما يتضح ذلك من قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لعاقبون » . كما أننا نرى مما تقدم أن القرآن لا يستعمل ضمير جماعة الغائبين أو الصيغ المسندة الى جماعة الغائبين عند الاشارة الى الله جل شأنه ، ولا ضمير الغائبين الاثنين أو الصيغ المسندة الى الغائبين .

أما خطاب المؤمنين لله ودعائهم إياه فنجد أن القرآن يستعمل فيه ضمير المخاطب المفرد ومن أشهر الأمثلة على ذلك فاتحة الكتاب (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين اياك نعبد و اياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين)^١ ومن ذلك قوله تعالى « وما تنقم منا الا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبراً وتوبت علينا مسلمين » (الأعراف آية ١٢٦ - قصة موسى وفرعون والخطاب في « تنقم » لفرعون)

وأما خطاب الله للمؤمنين وحديثه عن وجل عنهم فهو مماثل خطابهم إياه لا يستعمل فيها الا الضمائر العادية كذلك . ومن أمثلة خطاب الله للمؤمنين وحديثه عنهم قوله تعالى في سورة الأنفال (آيات ١٥ - ١٧) :

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقنالا أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ان الله سميع عليم . » وقوله تعالى في الأنفال آية ٧٢ : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آثروا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم في الدين فمليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم

(١) تجددى شعراية بن ابن الصلت الثقفى بيتا يدعو فيه الله بضمير المخاطب المفرد لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شيء اعلى منك مجدداً وامجد

ميثاق والله بما تعملون بصير » .

ومن حديث الله عن المؤمنين : (لا يسمعون فيها لغواً ولا كيداً يا « سورة النبأ ») .

وننتقل الآن الى الضمائر والصيغ المسندة الى ضمائر التي يستعملها القرآن في الكلام عن العلاقة بين الله عز وجل وبين الكفار .

أما خطاب الكفار لله فنستعمل فيه صيغة المفرد في الأغلب وصيغة الجمع أحياناً . وأمثلة هذا النوع قليلة في القرآن ومنها :

« وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا الى أجل قريب نجيب دعوتك وتب الرسل » أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . » (ابراهيم آية ٤٤) ومنها : « ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا فعمل صالحا انا موقنون » (السجدة آية ١٢) . ومنها قوله تعالى « حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون » (المؤمنون آية ٩٩) .

وأما خطاب الله للكفار فأملته في القرآن كثيرة نكتفى منها بقوله تعالى : « فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا (سورة النبأ آية ٣٠) » وهذا الخطاب تستعمل فيه الضمائر والصيغ العادية .

وحديث الكفار عن الله يشمله قوله تعالى :

« ان الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعملون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يفضل به كثيراً ويؤتى به كثيراً وما يفضل به الا الفاسقين » (البقرة آية ٢٦) . « أو كالتى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحببى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه . . . فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » (البقرة آية ٢٥٩)

(١) ومن أمثلة هذا النوع : « وقال الذين كفروا ربنا إنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » (فصلت آية ٢٩) و : « . . . ويوم يناديهم ابن شركانى قالوا اذتلك ما منا شهيد » (فصلت آية ٤٧) « لا قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين . ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون » (المؤمنون ١٠٦ - ١٠٧) .

وفي الحديث عن عاد وثمود قال تعالى : « اذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالو لو شاء ربنا لاذلنا لا تزل ملائكة فانا بما ارسلتم به كافرون » (فصلت آية ١٤) .

اما حديث الله عن الكفار فمن امثله :

« ان جهنم كانت موصداً للظالمين ما با لبش فيها احقابا . لا يفوقون فيها بردا ولا شرابا الا حميما وغساقا جزاءا وفاقا انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذبا » . (سورة النبا) .

ومن رواية القرآن لكلام الكفار قوله تعالى :

« يوم ينظر المرء ما قدمت يده و يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا » (النبا) . وقوله تعالى رواية لكلام الكفار (يقولون اتنا لردودون في العافرة اذا كنا عظاما نعرة . قالوا تلك اذن كرة خاسرة » (النازعات) .

والقرآن عندما يخاطب الرسول يخاطبه بصيغة المفرد ومن ذلك : « يس » والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم) و « والضحي والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلا ولتآخرة خير لك من الاولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك . . . الخ » .

ومن خطاب الله لرسوله وطلبه اليه أن يقول كلاما : « قل يا ايها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين » .

والقرآن عند ما يتحدث عن الرسول فهو يتحدث عنه بصيغة المفرد « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى » وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى . . . الخ » و « عسى وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنتغه الذكرى » . (سورة عبس) .

ح - واذا انتقلنا الى الحديث النبوي وجدنا أن الرسول يتكلم بصيغة المفرد دون تغيير ، ويخاطب المؤمنين والكفار على حد سواء مستعملاً الضمائر العادية ، كما أن كلام الناس من مشركين ومؤمنين للرسول لا يظهر فيه استعمالات خاصة للضمير أو للصيغ المستندة الى ضمائر .

ومن حديث الرسول (صلعم) عن نفسه :

« ان الرائد لا يكذب أهله » والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم . والله الذي لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم

حقا الى الناس كافة وانكم لأول من أئذ بين يدي عذاب شديد » .

والناس على اختلاف طبقاتهم كانوا عندما يخاطبون الرسول يخاطبونه مستعملين صيغة المخاطب المفرد ، واذا تحدثوا عنه تحدثوا بصيغة الغائب المفرد : ولا يستعملون في جميع ذلك صيغ تكلم خاصة بهذا السياق . والأمثلة الثرية على هذا كثيرة في كتب الحديث ، ومن الأمثلة الشعرية قول قتيلة أخت النضر بن الحارث :

أحمد ولدتك خير نجية في نومها والقوم فحل معرق
ما كان شركك لو مئت وربها من التي وهو المقيظ المحقق
فالنضر أقرب من قتلتي قرابة وأحقهم ان كان عتقا يعق
لو كنت قابل فدية لعديتسه أعز ما يلقى به من ينفق ٢

ومن الحديث عن الرسول قول كعب بن زهير

أتيت رسول الله اذ جاء بالهدى

ويتلو كتاباً كالمجرة ثيرا

وقول حسان بن ثابت يخاطب أبا سفيان من سادات قريش ويتحدث عن الرسول :-

هجو محمد فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
- - - - - واذا نظرنا في كلام الخلفاء الراشدين ، عن أنفسهم وفي

(١) وفي خطبة الرسول الجامعة في حجة الوداع أمثلة كثيرة على حديثه عن نفسه بصيغة المفرد : (. . . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، واحتكم على طاعته ، واستفتحكم بالذي هو خير) اما بعد اسمعوا مني ايها لكم فاني لا أدري لعل لا التاكم بعد عامي هذا في موقفى هذا

(٢) ومن ذلك قول كعب بن زهير :-

مهلاً هذالك الذى أهلك ناقلة الـ قرآن فيها مواظف وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب وان كثرث في الاتساويل

خطاب الناس على اختلافهم اياهم ، وفي حديثهم عنهم لم نجد استعمالات خاصة للضمائر .

هـ - ان دراسة « الكتاب الديوانية » من أقدم عصورها كفيلا بأن تبين لنا الزمن الذي بسدى فيه باستعمال ضمير المتكلمين للمتكلم الواحد في الرسائل عندما تصدر الرسالة باسم خليفة ، او باسم امير أو وزير الى من هو أدنى منه كما أنها كفيلا باظهار ما صجب ذلك من اكنار في القاب التحديد والتفخيم ، ومدى تأثير العرب في ذلك بما كان من هذا لدى الأمم الأخرى ان كان ثمة تأثير .

(١) قال ابو بكر يوم بويج : « أما بعد فاني وليت عليكم ولست بخيركم . . . وان اقوام عندى الضعيف حتى أخذ له الحق ، وان اضعفكم عندى القوي حتى أخذ منه الحق . ايها الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فاذا رأيتموني على حق فاعينوني ، وان رأيتموني على باطل فردوني . اطيعوني ما اطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . . .

ومن خطبة عمر بن الخطاب اذ ولي الخلافة : « ايها الناس اني داع فامتنوا . اللهم اني غلظ قلبي لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة وارزقني الغلظة والشدّة على أعدائك وأهل الدخالة والنفاق من غير ظلم عني لهم ولا اعتداء عليهم . . . »

ومن خطبة عثمان بن عفان عقب أن بويج : « أما بعد فاني قد حملت وقد قبلت . ألا واني نسع ولست بمبتدع ، ألا وان لكم علي بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثا . . . »

ومن خطبة علي بن ابي طالب بعد التحكيم : « . . . وقد كنت امرتكم في هذه الحكومة أسرى ، ونحلت لكم مخزون رأيي لو كان يطاع لقصير أمر فأيتم على ابناء المخالفين الحفافة والمنايدين العصاة حتى أرتاب الناصح بتصحجه ، وضمن الرئد بقدرحه ، فكنت واياكم كما قال أخو هو اذن . . . »

امرتكم امرى بمتخرج اللوى فلم تستبينوا النصح الا ضحى الفد . ومن الأمثلة الشعرية على عدم استعمال ضمائر خاصة عند خطاب الخلفاء الراشدين قول الحطيئة المشهور يخاطب عمر . . .

ماذا تقول لأفراخ بسدى مرج	رغب الحواصل لا ماء ولا شجر
التيبت كاسهم في قعر مظلمة	فاعدل عليك سلام الله يا عمر
انت الامام الذي من بعد صاحبه	التي اليك مقاليد الورى البشر
لم يؤثروك بها اذ قدموك لها	لكن لا تقسوم كانت بك الأثر
فاحزن على ضيعة الرمل مسكنهم	بين الأباطح تقشاهم ببا القرر
اهلى نساؤك كم بينى وبينهم	من عرض داوية يعنى بها الخبر

و - انا في العصر الحديث نجد خطاب الملوك والسادة وما يصدر عنهم يختلف عما كان عليه الأمر أيام الجاهلية وصدر الاسلام فتحن المصريين كنا نشير الى الملك أيام الملكية بـ « مولانا » و « مولانا صاحب الجلالة » .

والمراسيم التي تصدر باسمه كانت تبدأ بمثل « نحن فؤاد الأول ملك . . . » رسنا بما هو آت . . . »

ولم يكن يسوغ في مخاطبة رسمية مخاطبته باسمه بل يقال « يا صاحب الجلالة ، « مولانا الملك المعظم » ، « جلالتك » ، « ذاتكم الملكية الكريمة » الخ . ولكن لشعر لغته الخاصة فالشاعر يباح له أن يخاطبه باسمه وأن يشير الى اسمه مجرداً من كل لقب أو مقرونة باللقاب ، كما يباح له أن يخاطبه بضمير المفرد ، ولذلك فقد أشرنا الى وجوب دراسة لغة الشعر دون الخلط بينها وبين لغة النثر .

ولكن اللغة العربية وان كثر فيها حديثاً استعمال ضمير الجمع عند مخاطبة شخص عظيم أو عندما يكون المتكلم شخصاً عظيماً الا أنها لا تغير من ضمير المتكلم الذي يخاطب العظيم بياناً لأنه أقل منه شأنًا أو لأنه نداء له ؛ كما أن العربية لا

(١) ومن ذلك في شعر شوقي : (الشوقيات - مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٥٢ - ط ١) طبعة ثانية مكملتها نفس المطبعة سنة ١٩٥١ .

العلم والملوك الرفيع كلاهما لك يا « فؤاد » جلاله ومقام (ديوان - ٤ ص ١٠) و « فؤاد » حليفت جيد النيل ماثرة حذوت في صوغها آياتك الشجيا ديوان - ١ ص ٨٤

ومن مخاطبة شوقي للملك نؤاد بكنيته ، وهي طريقة من خطاب الملوك لم تكن اذ ذاك تستعمل في غير الشعر .

انظر « أبا الفاروق » غزلك هل ترى بالسفرس الانعممة ونمساء

و : « أبا الفاروق » أقبلنا صفوفا وأنت من الصفوف هو الامام (ديوان - ٤ ص ٥٠)

ومن امثلة مخاطبة شوقي للملك فؤاد عظما ومفضما قوله من بيتين أرسلهما في برقية بميلاد (الاميرة) فتحية :

مولاي ! ان الشمس في عليائها أنشئ ، وكل الطيبات بنات

وقوله في مطلع قصيدة يهني بها الدكتور على ابراهيم بمناسبة الانعام عليه برتبة الباشوية سنة ١٩٣٠ :

يسد الملك الملوى الكريم على العلم هزئت اخاه الادب (ديوان - ٤ ص ٧٥) -

تستعمل ضمير الجمع الغائب عند الإشارة إلى شخص ذي جاه .

وما هو جدير بالملاحظة أنه يكثر في لغة التأليف سواء كان المؤلف كاتباً علمياً أو أدبياً ، أو مقالة أن يتكلم المؤلفون مصطنعين ضمير جماعة المتكلمين (ونحن نرى - قلنا - أشرنا . . . الخ) ولكن استعمال هذه الصيغة غير لازم فهم يستعملون إلى جوارها صيغة المتكلم المفرد ؛ والدراسة التاريخية لاستعمال هذه الصيغة كفيلة بأن تضع أيدينا على النصوص الأولى التي استعملت فيها .

(٤) وإذا تركنا العربية إلى بعض اللغات الأوروبية الحديثة وجدنا صوراً أخرى من العلاقة بين الضمائر وبين المستويات الاجتماعية .

أ - فالإنجليزية تستعمل ضمير واحد هو You عند خطاب أي إنسانياً كانت منزلته من المتكلم ، وهذا الضمير هو نفسه الذي يستعمل عند خطاب أكثر من شخص ، كما أن هو الذي يخاطب به المذكر والمؤنث على حد سواء . وبينما الخطاب في الإنجليزية لا يراعى فيه التفريق بين الواحد وما يزيد عن الواحد ولا بين المذكر والمؤنث ، فإن التكلم له ضميران أحدهما للواحد أو الواحدة (I) والثاني لما يزيد عن الواحد مذكر أو مؤنثاً أو غيرهما (We) ، وبالعربية يفرق فيها كذلك بين المفرد وما يزيد عن المفرد وهي في حالة المفرد تخصص ضميراً لكل من العاقل والعاقل وما لا يعقل I - She - He . أما في حالة الجمع فهي تستعمل ضميراً واحداً هو They

ومعروف أن لهذه الضمائر في الإنجليزية تصرفات حسب موقعها من الجملة وللدلالة على الملكية وإن كانت الإنجليزية لا تستعمل في الخطاب عادة إلا ضميراً واحداً هو You وبذلك يمكن القول ، كما ترى مرجريت شلاوش بأنها في هذه الناحية « لا تطبق فيها » ، إلا أنها تستعمل لخطاب المفرد أحياناً قليلة ضميراً خاصاً هو (thou) وذلك في الخطاب الجدي - كالكلام الديني وألوان من الخطابة والشعر أحياناً . إن الإنجليزية تعبر عن منزلة المخاطب من المتكلم عن طريق الأسلوب العام وانتقاء الكلمات ، ولا يزال يستعمل فيها - وإن كان فيهما مضي أكثر شيوعاً - أسماء مجردة تذكر بعد ضمير الملكية المخاطب (your) عند خطاب الملوك

The Gift of Tongues, p. 270 .

(١)

والأمراء والأميرات وحملات الألقاب وحاملاتها وذوى المناصب الرفيعة مثل
Your Highness - Your Majesty Your Ladyship - Your Lordship
Your Excellency (الخ) ١

ب - أما الفرنسية فمن المعروف أنها في التكلم لا تميز إلا بين الواحد وما يزيد عن الواحد دون تفريق يقوم على أساس التذكير والتأنيث (Nous - Je) وهذا النوع من التمييز هو الذي تراعيه في الخطاب (Vous - Tu) ولكنها في الغياب تضيف إلى هذا التمييز التفريق القائم على أساس التذكير والتأنيث فللواحد والواحدة Elle - Il وما يزيد عن الواحد مذكراً Il-s وما يزيد عن الواحدة Elles . والفرنسي عند ما يخاطب شخصاً لا يألوه وإن كان في مستواه الاجتماعي أو شخصاً يعلوه في السلم الاجتماعي يخاطبه بضمير الجمع vous ، أما في خطاب أصدقائه ومن لا كلفة بينه وبينهم فهو يستعمل ضمير المفرد Tu

ج - والألمانية أشد من الإنجليزية والفرنسية تدقيقاً وتمييزاً في ضمائر الخطاب للتعبير عن منزلة المتكلم من المخاطب : فالألماني في خطاب طفلاً أو صديقاً حياً أو شخصاً يحسن نحوه زراية واحتقاراً يقول "du" ، وقد يبدو غريباً استعمال ضمير واحد في خطاب الصديق وفي خطاب من يحسن التكلم نحوه زراية ، ولكن هذا هو الذي تسير عليه الألمانية ؛ والألماني إذا يخاطب غريباً عنه يعبر عما بينهما من بعد باستعماله الضمير Sie (وهذه الكلمة مطابقة شكلاً وأصلاً للضمير الذي يعني « هم » they) ؛ أما إذا أراد اظهار الاحترام والطاعة فهو يوجه الكلام إلى المخاطب مستعملاً اسماً غائباً (فيقول مثلاً ما يقابل : هل فرغ السيد من احتساء قهوته ؟) .

(٥) ولكن هذا التفصيل في الضمائر الذي نجده في الألمانية وسائر اللغات

(١) ترى مرجريت شلاوش أن الضمير الذي يمكن أن يحل محل هذه الأسماء المجردة (مثل Excellency وما إليها) في اللغات التي تميز بين الجنس هو ضمير المفرد المؤنث She (هي) ؛ وأن الكلمة الأسبانية المعاصرة المقابلة لـ "You" مأخوذة من اسم مؤنث مرتبط بالبهذب الذي يراعى في دوائر البلاط والأوساط الراقية فـ "usted" الأسبانية مختصرة من "vuestra merced" التي تقابل في الإنجليزية "Your graciousness" أو "Your mercy"

(٢) انظر المرجع السابق .

الأوروبية ، وفي العربية لا يقاس الى ما يوجد في بعض لغات الشرق الأقصى كاللغة اليابانية والكورية ولغة الملايو . وهذه اللغات نفسها لا تتفق في صورة واحدة أو متقاربة في تعبيرها عن المستويات الاجتماعية إنما يتمثل في كل منها لون خاص به .

أ - فالإباني عندما يشير الى فرد من أفراد الطبقة العليا يمنعه تأدبه من أن يستعمل صيغة المبني للمعلوم البسيطة فهذه الصيغة تشعر أن أفراد الطبقة العليا مضطرون الى أن يؤديوا الأعمال بأنفسهم ، ولهذا فهو يختار الـ

causative voice معطيا إياهم بهذا دور الأشخاص الذي يعملون بواسطة عن طريق الأمر ، أو هو يختار صيغة المبني للمجهول كما لو كان الحدث يقع من تلقاء ذاتها .

ب - أما اللغة الكورية فهي تعبر بالصيغة الفعلية عما إذا كان المتكلم شخصاً رفيع المقام يخاطب شخصاً أدنى منه ، أو شخصاً أدنى يخاطب من هو أعلى منه ، أو شخصاً يكلم قريباً (= مساوياً) له ، كما أن هذه اللغة تعبر بصيغة الفعل في الوقت نفسه عما إذا كان هذا الخطاب يحدث باحترام نسبي ، أو باحتقار ، أو بطريقة معايدة لا احترام فيها ولا احتقار .

ج - وأما المتكلم بلغة الملايو فعليه أن يحدد أولاً بعد المخاطب منه في السلم الاجتماعي لأنه حسب هذا التحديد لا يغير ضمير المخاطب ليس إلا بل يغير ضمير المتكلم كذلك رسائر الضمائر . وقد رتب مرجريت شلاوش ٢ عدد الصيغ التي على المتكلم بلغة الملايو أن يختار من بينها حسب المراكز الاجتماعية للأشخاص الثلاثة الذين يحتاج الى أن يعبر عنهم ، ونحن نقل عنها هذا الجدول فيما يلي :

- (١) المرجع السابق p. 271
(٢) المرجع السابق pp. 271 - 272
(٣) المرجع السابق pp. 270 - 271

(٤) راجع ما يتعلق بالضمير في الفصل الذي كتبه يسر من بعنوان Person في كتابه The Philosophy of Grammar (p.p. 212 - 225) وانظر بصفة خاصة الى كلامه عن « الشخص الرابع » . وراجع الفصول التي كتبها المؤلف نفسه عن الشخص والضمائر في كتابه :
Essentials of English Grammar, p.p. 146 - 196

النسخ المتكلم	أنا ، نحن	انت ، أنتما ، أنتم ، أنتم	هو ، هي ، هما ، هن ، هم
ولاح يكلم فلاحاً آخر	kita ; aku الجمع	engkau	dia , ia
شخص أعلى يكلم شخصاً أدنى باستعمال	kita ; aku الجمع	engkau	dia , ia
شخص أعلى يكلم شخصاً أدنى بطريقة عادية	kita ; sahaya الجمع	awak, kamu	dia , ia
شخص عال يخاطب أقرانه برتبة	(tuan) hamba	(hamba) tuan	(hamba) tuan
جميع الطبقات في خطابهم الأوروبيين	kita ; sahaya	tuan	tuan
شخص من الطبقة التي تقل من طبقة النبلاء مباشرة يخاطب قريباً له	kami	tuan , encle'	tuan , encle'
رجل مامي لرئيسه	(dato') hamba (dato') sahaya	dato'	dato'
}} رجل على لراجا }} راجا لرجا آخر أعظم منه	patek	engkau , téngku	engkau raja , téngku
دعية للسلطان	patek	tuan-ku	tuan-ku , yam-tuan
اللغة الأدبية	patek	sahabat beta	الاسم واللقب

ملاحظة : الصوت الممثل في الجدول بالشرف e مثلته المؤلف في الأصل بالحروف e ونووه ما يشبه رقم ٧ . ونظراً لتعذر هذا الحرف عندنا فقد عدلنا عنه الى الشكل المستعمل في الجدول .

التطور اللغوي وصلته بالاجتماع

نتحدث الآن عن جوانب من تطور اللغة واللغات مبينين ما بين هذا التطور والعوامل الاجتماعية من صلات ؛ فنعرف بما يحدث من استمرار لغة على الألسن وانقطاع أخرى ، ومن ظهور « لغة عامة »^١ عن لهجة أو مجموعة من اللهجات (وهو يعرف بالتوحد اللغوي) ، ومن احتكاك بين لغات ولهجات يحدث آثاراً فيها مع بقائها جميعاً على الألسنة .

بقاء اللغات وموتها

(١)

نوصف لغات بأنها « حية » وأخرى بأنها « ميتة » . والحق أن هذه الحياة وذاك الموت نسيان يقاسان باستمرار استعمال هذه اللغات ، أو بانقطاع دورها على الألسن . إن أية لغة من اللغات هي نظام معين من النظم الاجتماعية ، وهي بهذا الاعتبار خاضعة لتطور مشروط بتطور الجماعة التي تتكلمها ؛ وأية لغة باعتبارها نظاماً من العلامات التعسفية المتواضع عليها لا يقوم لها وجود إلا إذا استعملتها جماعة من الجماعات .

وأشهر ما يساق من الأمثلة على « موت » اللغات هو اللغة اللاتينية . ولكن اللاتينية لم تمت في الحقيقة ، إنها لم تمت من الناحية التاريخية ، بل أصابها تغيرات عميقة أنتجت أشكالاً حديثة لها أبرزها البرتغالية^٢ ، والقشتالية^٣ ، ولغة قطالونيا^٤ ، ولغة بروغانس^٥ ، والفرنسية ، والإيطالية ولغة رومانيا^٦ ، والإسبانية . وقد بلغ من شدة هذه التغيرات وعمقها أننا نحس إذا نظرنا إلى الأشكال الحديثة

Common Language (١)

(٢) انظر في هذا :

Jean Perrot : La Linguistique ; pp. 123 - 124

Jespersen : Mankind ; pp. 44 - 45

Portuguese (٣)

Castilian (٤)

Catalonian (٥)

Provençal (٦)

Roumanian (٧)

لاتينية بأنها لغات مختلفة .

ومن اللغات التي توقفت الناس عن استعمالها اللغة الغاليتة التي أخذت تزول شيئاً فشيئاً إلى أن حلت محلها اللاتينية ؛ ومنها لغة كورنوال^٢ ، وهي لغة كلتية الأصل كان يتكلمها أهل الجزر البريطانية إلى أن حلت محلها اللغة الانجليزية . ومن ذلك اللغة القبطية في مصر ، والبربرية في أقطار كثيرة من شمال أفريقيا ، فقد حل محل هاتين اللغتين لغة العرب الفاتحين .

واللغة الهندوأوروبية العامة انبثقت عنها عدد كبير من اللغات ، وكذلك الشأن في اللغة السامية العامة ، وفي اللغة الأسكندنافية العامة التي انبثقت عنها الأيسلندية^٣ ، واللغة النوروية^٤ ، والنرويجية ، والسويدية ، والدانمركية . واللغة الجرمانية الغربية العامة ظهر عنها الانجليزية ، والألمانية ، والهولندية .

(ب) التوحيد اللغوي

(١) في حياة اللغة ميلان متعارضان : أحدهما نحو التقسم إلى لغات ولهجات ، والثاني نحو الوحدة المتزايدة الاتساع . وكلا التقسم والتوحيد اللغويين فعل أحداث تؤثر في الجماعات . ويرى بعض اللغويين أن الاتجاه نحو التقسم أقوى من الاتجاه نحو التوحيد ، وأن الاتجاه الأول هو عملية التطور الطبيعية للغة ، ومن هؤلاء اللغويين « ويلد »^٦ الذي يقرر أن اتجاه اللغة هو نحو « التنوع اللانهائي »^٧ وهؤلاء اللغويون يستشهدون على رأيهم بأدلة كثيرة من بينها أنه ما ظهرت لغة عامة إلا تقسمت في لغات كثيرة .

Gaulish (١)

Cornish (٢)

Icelandic (٣)

Fœrie (٤)

(٥) فيما يتعلق بتصنيف اللغات وتطورها راجع ما كتبه أنطوان ميه بعنوان :

Introduction A La Classification Des Langues (Linguistique Historique Et Linguistique Générale, Tome II, pp. 53 - 69)

ويعتوان : Le Développement Des langues (op. cit., pp. 70 - 83)

وراجع ما كتبه في الجزء الأول من نفس الكتاب بعنوان :

Convergence des Développements Linguistiques (pp. 61 - 75)

H.C. Wyld (٦)

ولكن «يسپرسن» يرى أن هناك قوى لا يجوز التغافل عنها تعمل في الاتجاه المضاد ، وأن « هذه القوى الموحدة كانت في العصور التاريخية أقوى في حقيقة الأمر من القوى المقسمة » ، وانها لذلك في الوقت الحاضر على وجه الخصوص ، وستكون كذلك يقينا في المستقبل^(١) . وما يستشهد به يسپرسن أن عدد اللغات الآن ، وإن كان أكثر منه في بعض العصور الماضية ، إلا أن عدد المتكلمين بلغة من اللغات المنبثقة عن لغة عامة — في عصرنا المزدحم بالسكان ازدحاما لم يعرف من قبل — هو في معظم الحالات أكثر أضخافا مضاعفة من مجموع الذين كانوا يتكلمون تلك اللغة العامة . ومن أمثله على هذا أن عدد من كانوا يتكلمون الجرمانية الغربية العامة ضئيل جداً بالقياس الى المائة والخمسين مليوناً الذين يتكلمون الآن الانجليزية ، والخمسة والسبعين مليوناً الذين يتكلمون الآن الألمانية ، والمئتين مليوناً الذين يتكلمون الآن الهولندية^(٢) . ثم يعود يسپرسن فيحترز بعض الاحتراز مقررًا أنه أيا ما كان الحال فالواقع أن الميل جد قوى نحو أن يكون عدد المتكلمين بلغة واحدة ونفس اللغة أكبر بكثير منه في أى زمن مضى^(٣) .

(٢) أما العوامل المعينة على ظهور لغة عامة وعلى نشرها فكثيرة معقدة متشابكة . وذلك لأن الحياة الاجتماعية تقوم على العمل المشترك لقوى كثيرة مختلفة . وهذه العوامل تختلف طبيعة وقوة ودرجة ، فقد تكون سياسية ، أو اقتصادية ، أو قومية ، أو أدبية ، أو غير ذلك .

ودراسة ظهور اللغات العامة التي تكونت في العصور التاريخية تبين أنه لم يحدث في حالة من الأحوال أن كان ظهور اللغة المشتركة أو العامة راجعاً الى عامل فرد ، وانها لتبين كذلك أنه من العسير في كثير من الأحوال معرفة أى العوامل كان أقوى أثراً في تكوين اللغة العامة أو في اداعتها .

ولذلك فسنعرض فيما يلي أهم العوامل ذات الأثر في تكوين اللغات العامة ونشرها ، دون أن يعنى هذا بالضرورة أن هذه العوامل لا بد من توفرها في كل حالة .

أ - يستند التوحيد اللغوي دائماً على الاتصال والاختلاط وعلى الاشتراك في الحياة . والاتصال الفعال في توحيد اللغة قد ينشأ عن حرب تسبب اختلاط سكان بشعرون الى أماكن مختلفة ذات لهجات مختلفة ، وقد ينشأ من عقد الأسواق الرسمية ، وعن المصاهرة بين أصحاب اللهجات المختلفة ، هذه المصاهرة التي يدعو الى قيامها ظواهر اجتماعية ونفسية . وللمدين دوره الهام في قيام اللغات العامة ، فالأعياد والاجتماعات الدينية الكبرى تؤلف بين الناس قاصيهم ودانيهم ، ومن ذلك أثر اجتماع عرب الجاهلية في مكة خاصة في ظهور اللغة العربية المشتركة ، وما كان لمعبدى دلفى^(١) وأوليمبيا^(٢) في اليونان — وكانا مزار جميع الهيلينيين — وللألعاب الأولمبية عند اليونان التي كان لها دلالة دينية . وللكثينة دورها الهام في توحيد اللغة في كثير من البلدان ، وإن كانت أحياناً معرقلاً للتوحيد اللغوي عندما تحتفظ بلغة قديمة .

ب - أما الأدب لا سيما الشعري فمن أكبر القوى العاملة على تكوين اللغات العامة واستفاضتها . فالرواة والقصاص والمنشدون والمغنون كانوا ينتقلون بأديهم من قبيلة الى قبيلة ومن بلاط ملك أو أمير الى بلاط غيره ، ولقد كانوا مضطرين في كثير من الأحوال الى أن يستعملوا نوعاً من الكلام العام يفهم جوهره أصحاب اللهجات المختلفة الذين يعرضون عليهم أديهم ، وكثيراً ما كانوا يعتمدون الى أن يسقطوا من كلامهم ما قد يستعصى على الإدراك من عناصر لهجتهم المحلية ، وهكذا تتكون لغة أدبية عامة . ولقد وجدت في أيرلندا في العصور الوسطى لغة عامة من هذا النوع كان أعظم عامل في ظهورها راجعاً الى تأثير القصص^(٣) وهكذا كان الإنسان في لغة الأدب اليوناني القديم : نشأت كل فنون الأدب اليوناني — ما عدا المأساة — في المستعمرات اليونانية فيما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد ، ولقد كان بين هذه المستعمرات تبادل قوى . ولغة هذه الآثار الأدبية لا تنطبق لغة بلادة خاصة فهذه الآثار الأدبية لم تكن موجهة الى بلدة واحدة بل الى مجموعة من البلدان ، وإلى اليونان كلها في واقع الأمر . نعم إن كل فن من فنون

- | | |
|----------|-----|
| Delphi | (١) |
| Olympia | (٢) |
| Saga-Men | (٣) |

- | | | |
|---------------------|---------|-----|
| Jespersen : Mankind | : p. 44 | (١) |
| " | : p. 45 | (٢) |

الأدب اليوناني كانت لغته الخاصة مصطلبة بلغة ذلك الاقليم الذي ظهر فيه لأول مرة، ولكن مثقفي اليونان في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كانوا يفهمون النصوص الأدبية اليونانية وان كانت مؤلفة بلهجات جد نائية .

وان أثر الأدب في تكوين اللغات العامة وانتشارها يصحبه ظروف اجتماعية خاصة سياسية واقتصادية وغيرها . أما القول بأن لغة عامة قد كونها أديب واحد فهو قول غير صحيح . ومن ذلك الاعتقاد الذي كان سائداً أن الايطالية قد كونها دانتى^١ ، والانجليزية كونها تشوسر^٢ ، والألمانية كونها لوتزر^٣ ، والدانيمركية كونها كريسترن يدرسن^٤ . فقد أظهر البحث أن كل لغة من هذه كانت مكونة قبل أن يخط هؤلاء حرفاً . ولكن أهمية هؤلاء الأعلام أنهم دفعوا ما كان متحركاً من قبل فقد اعتبروا نسيج أدبية ، وأخذ يقلد لغتهم آتاس ما كانوا لولاهم ليتكلموا أو يكتبوا اللغة العامة .

حـ أما الحالة السياسية فذات أهمية قصوى فيما يتعلق بالعمل على التوحيد اللغوي أو على عرقته . فإذا قدر لولايات كل منها مستقل ولكل لهجته أن تتحد تحت حكم واحد كانت الفرصة مواتية لظهور لغة عامة : فالحكومة الواحدة مضطرة الى أن تخاطب سكان البلاد أجمعين على اختلاف لهجاتهم ؛ كما أن مقرر الحكم من شأنه أن يستهوى الطامحين من مختلف الولايات ، وهؤلاء سيجدون أنفسهم مضطرين الى التلجى عن كثير من خصائص لهجتهم المحلية . وقد لوحظ أنه حيث تكون الحكومة مركزية الى حد كبير تنتشر اللغة العامة ، وذلك شأن الامبراطورية الرومانية القديمة بلغتها اللاتينية الرسمية .

أما ألمانيا التي ظلت قروناً ولايات مستقلة سياسياً وبدون عاصمة فهي مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة . فقد حدث حتى بعد ظهور اللغة الألمانية العامة — التي كان يعمل على ظهورها من قبل اتحاد ألمانيا ، قوى أخرى موحدة — أن اللغة العامية التي يتكلمها متعلمو الألمان حتى في أيامنا هذه أكثر تلونا باللهجات

Dante	(١)
Chaucer	(٢)
Luther	(٣)
Christiern Pedersen	(٤)

المحلية إذا قيسمت بعاميات المتعلمين في معظم البلاد الأوروبية الأخرى . ومن العوامل ذات الأثر في ظهور اللغة الألمانية « لغة المحاكم »^١ السكسونية التي كانت تقلدها محاكم أخرى بما فيها محاكم النمسا^٢ التي أصبحت شبه لغة كتابية عامة رسمية .

ثم كانت ترجمة لوتزر للكتاب المقدس ، هذه الترجمة التي كانت كبيرة الأثر حتى في البلاد الكاثوليكية ، بأسلوبها الحي الجديد الطبيعي ، واختيارها للتعبيرات التي لم تكن ملكاً خالصاً لأقليم ألماني بعينه . ولم يقتصر الأمر على لغة الكتابة فقد كانت ثمة عوامل تعين على نشر لغة الكلام العامة . ومن ذلك أن لغة الكلام الألمانية العامة قد أدخلتها في المناطق الشرقية من ألمانيا طبقة عليا من طبقات المجتمع ، وكانت السلاوية^٣ لغة الكلام في هذه الأقاليم من قبل . وكانت هذه الطبقة العليا تتكلم الألمانية بصورة بالغة الدقة ، إذ كانوا يحسون أن عليهم أن يتكلموا « كلاماً صحيحاً » وألا يرسلوا أنفسهم على مسجيتها شأنهم في بلد صغير في سكسونيا ، أو نورينجيا أو بافاريا .

دـ ومن أهم العوامل المساعدة على تكوين لغة عامة وانتشارها في المجتمعات الحديثة ، الخدمة العسكرية ، والمدارس والمعاهد والجامعات فهي تتيح الاتصال بين أشخاص من أقاليم مختلفة ذوى لهجات مختلفة ، وهكذا يفسح المجال لظهور كلام مشترك .

أما السينما والاذاعة والصحافة فهي من أكبر وسائل نشر اللغة العامة في العصر الحديث ، فكلماها المنطوق والكتوب يوجه الى أصحاب اللهجات المختلفة ، فينه من حدة الاختلافات المحلية في اللغة .

هـ وظهور المدن الكبيرة قديماً وحديثاً — وقيامها راجع الى ظروف اجتماعية خاصة — خطير الأثر في توحيد اللغة .

Chancery-Language	(١)
Austria	(٢)
Slavonic	(٣)
Saxony	(٤)
Thuringia	(٥)
Bavaria	(٦)

فالدور الذي قامت به أثينا وروما قديماً في تكوين اليونانية واللاتينية وإذا دعاهما دور عظيم ولو لم تكن الاعتبارات السياسية وغير السياسية التي شاركت في ظهور هاتين اللغتين فقد كانتا ستقومان بهذا الدور . ذلك لأن المدن تجذب جماعات من الناس من أقاليم متفاوتة متباعدة فضلاً عن اجتذابها أناساً من ضواحيها المتاخمة لها . وينتج عن اختلاط هؤلاء المهاجرين بعضهم ببعض ، وعن اختلاطهم بالسكان الأصليين أن تصقل لغة الجميع ، وأن ينتهي الأمر بأن يتكلم سكان المدينة الكبرى بطريقة لا تختلف من موقعها الجغرافي ، فالكلام العام المشترك لأثينا لم يكن أتيكياً ، خالصاً ، والكلام العام لروما لم يكن كلام سكان روما الأصليين ، والكلام العام للندن وباريس في العصر الحديث ما هو بلندي أو باريسى خالص . إن هذه اللغات العامة ظهرت في أثينا وروما ولندن وباريس ولكنها لم تظهر بفضل أثينيين ورومانيين ، ولندينين وباريسيين .

(ح) آثار الاحتكاك بين اللغات واللهجات :

(١) تحدث أحياناً اتصالات بين اللغات واللهجات نتيجة للاتصال بين الجماعات الناطقة بها دون أن ينشأ عن ذلك حلول لغة محل أخرى ، وهذه الاتصالات لها آثارها اللغوية في اللغات التي يحتك بعضها ببعض ، وقد تكون هذه الآثار أقوى ظهوراً في أحدها . ومن ذلك كثرة الكلمات العربية في اللغة الإسبانية نتيجة لفتح العرب إسبانيا وإقامتهم بها قروناً . ومنه ما في العربية الفصحى منذ الجاهلية من كلمات حبشية ورومية وفارسية وهندية وسواها لما كان من اتصالات مختلفة الوسائل بين العرب وبين أصحاب تلك اللغات . والدخيل الفارسي قد ازداد في العربية بعد الإسلام خاصة ثمرة لازدياد الاحتكاك بين العرب والفرس . والفارسية نفسها أخذت من العربية بعد الإسلام وكان من أظهر ما استعارته مصطلحات عربية علمية ودينية . وكثر الدخيل اليوناني في العربية لما نقل العرب إلى لغتهم فلسفة اليونان وعلومهم . وفي العاميات العربية الحديثة كلمات تركية دخلتها بعد أن آلت الخلافة

Attie

(١)

(٢) انظر فيما يتعلق بالعوامل المعينة على التوحد اللغوي :

Jespersen, Mankind... : pp. 46 - 86

وراجع ما كتبه أنطوان ميه بعنوان :

Différenciation Et Unification Dans Les Langues (Linguistique Historique Et Linguistique Générale, pp. 110 - 129)

الإسلامية إلى العثمانيين واستمرت فيهم قروناً . كما أن فيها كلمات أوروبية مختلفة الأصول ، وإن غلب أصلها هنا وآخر هناك ، نتيجة الاستعمار الأوروبي للعالم العربي الحديث . وليسوى ذلك من الأسباب ، فتكثر في العراق ومصر كلمات إنجليزية الأصل ، وفي سوريا ولبنان وتونس والجزائر كلمات فرنسية ، وفي ليبيا كلمات إيطالية ، وفي أنحاء من مراكش كلمات إسبانية . وقد أخذت العامية المصرية في السنوات الأخيرة - ولا تزال - تؤثر في سائر العاميات العربية على تفاوت في الدرجة لمكانة مصر حديثاً من العالم العربي : ووسائل نشر المصرية في سائر الأقطار العربية من أهدمها الأفلام السينمائية المصرية وأكثرها بالعامية ، والأفلام المصرية تكاد أن تكون الأفلام العربية الوحيدة التي تعرض في كثير من البلدان العربية خلف الفن السينمائي في هذه البلاد أو لعدم قيامه أصلاً ، ومن وسائل نشر العامية المصرية ما في الأذاعة والصحافة المصريتين من قصص وتمثيلات وأغان ومقالات بالعامية ، ومعروف أن لهاتين الوسيطتين أثراً فائقاً في سائر الأقطار العربية . وثمة وسائل أخرى لا تنشر العامية المصرية منها كثرة الواقفين على مصر من البلاد العربية لتلقى العلم في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها ، ولزيارة والانتظار والاقامة ، ومنها البعثات التعليمية المصرية وأهمها في بلاد العرب السعودية ، والكويت ، واليمن ، والعراق ، والسودان ، وليبيا . ولقد نتج عن انتشار العامية المصرية في سائر الأقطار العربية أن صار أهل هذه البلاد ، لا سيما المثقفون منهم وسكان المدن الكبيرة ، أفضل فهماً للعامية المصرية من المصريين لعاميات البلاد العربية الأخرى .

وفي المجتمع الحديث الذي كثر فيه الاتصال بين الأمم وسهّل ، نتيجة للاقتلاب الصناعي ، والمخترعات الحديثة وسرعة المواصلات وازديادها وليسوى ذلك من العوامل ، نجد كلمات مشتركة بين كثير من اللغات الأوروبية أصلها إيطالي أو ألماني أو إنجليزي مثلاً ، فانتشرت في هذه اللغات أسماء لوحدات كهربائية مأخوذة من أسماء مخترعيها مثل Ampère - Volt - Ohm بل نجد كثيراً من الكلمات الأوروبية تنتشر في لغات غير أوروبية كأسماء بعض المخترعات

والآلات مثل راديو - تليفون - تليفزيون - سينما - فيلم - بيانو الخ.

(٢) ان كثرة المفردات الدخيلة نتيجة لما يحدث بين اللغات واللهجات من احتكاك أمر معروف مقرر من قديم وربما كان أبرز وأكثر ما ينشأ عن هذا الاحتكاك، ولكن النظر الى الآثار الناتجة عن الاحتكاك بين اللغات واللهجات قد تغير في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، وفي ضوء علم اللغة الجغرافي ونظرية الموجات اللغوية بصفة خاصة . ومن أهم ما أخذ المحدثون من اللغويين في الحوض فيه فيما ينطلق بهذا الموضوع هو **امكان تأثير الاتصالات بين لغات الجماعة التي يتحدث بعضها ببعض في بنية اللغات .**

فمن العلماء من يرى أنه حيث تظهر في لغات متجاورة من الناحية الجغرافية سمات مشتركة لا يفسرها اشتراك هذه اللغات في أصل لغوي واحد فمرد ذلك الى تأثير بنية لغة منها في سائرها ، ومن ذلك أن الصوتين الصائتين *eu, u* (الفرنسية) ودرجات مختلفة منهما تستعمل في مساحة تشمل الفرنسية، ولغات من المجموعة الجرمانية الغربية هي الألمانية ، والفلمنكية والهولندية . ومن الأمثلة التي يستشهد بها على تأثير النظام النحوي للغة في النظام النحوي لأخرى أو أكثر نتيجة للاتصال بينهما أنه في شبه جزيرة البلقان تظهر في اليونانية والبلغارية ولغة رومانيا والألبانية سمات مشتركة تميز كلا من هذه اللغات من سائر لغات عائلتها، ومن ذلك استعمال الفعل الذي يعنى «يريد» لتكوين فعل دال على المستقبل (فنى اليونانية مثلا تستعمل عبارة *thélô hina* و *thélô* معناه «أنا أريد» ، وذلك كما في الفرنسية العامة أو المحلية *il ne veut pas pleuvoir* بمعنى

il ne va pas pleuvoir () ومن أمثلة الخصائص المشتركة بين اللغات المتجاورة غير المنتمية الى أصل لغوي واحد ، ما يلاحظ في معظم لغات الشرق الأقصى من التوسع في استعمال النغمات استعمالاً وظيفياً للتفريق بين المعاني ، ومن أن التمييز بين الاسم والفعل في هذه اللغات تمييز جد ضئيل . وهكذا أخذ اللغويون يتحدثون عن وجود «أخلاف» أو «اتحادات» بين اللغات فبدت أهمية

(١) راجع فيما يتعلق بالدخيل وأقسامه وكيفية دراسته الفصول الآتية التي كتبها ليونارد بلومفيلد في كتابه

- Language
- 1) Cultural Borrowing (pp. 444 - 460)
- 2) Intimate Borrowing (pp. 461 - 475)
- 3) Dialect Borrowing (pp. 476 - 495)

التصور الخاص بالشمالية (= التقارب = التصاهر) *affinité* بين اللغات الى جانب التصور الخاص بالأبوة بين اللغات .

ولكن بعض اللغويين يميلون الى القول بأن الآثار الناتجة عن الاحتكاك بين اللغات غير المشتركة في الأصل آثار محدودة لا سيما فيما يتعلق بالبنية اللغوية . فهم يلاحظون أنه أيا ما كان أخذ لغة من أخرى غير مشتركة معها في الأصل فإنا كلنا هاتين اللغتين يظل واضح العلاقة بأصلها ، فمن اليسير أن نميز لغة سلافية من أخرى جرمانية . ويضيفون الى هذا أن نسبة الصفات المشتركة بين اللغات غير المنتمية الى أصل واحد الى ما حدث بينها من اتصالات ، أى الى تأثير بنية لغة في بنية غيرها ، قد يكون أخذاً بالظاهر ، وربما كان التفسير الحقيقي أن هذه الصفات ظهرت في اللغة التي يفترض تأثرها بسواها نتيجة للتطور الخاص بها - هذا التطور الذي ينتج عن العمل المشترك لعوامل كثيرة تكون وحدانية - دون أن يكون لاتصالها بغيرها أثر في ذلك ، أى أن هذه الصفات كانت ستظهر لو لم يكن هذا الاتصال .

Jean Perrot : La Linguistique pp. 124 - 125 .

Le Problème De La Parenté Des Langues

Les Parentés De Langues

في كتاب أنطوان ميه : Linguistique Historique Et Linguistique Générale, pp. 76 - 101; pp. 102 - 109.

وراجع ما كتبه ميه في الجزء الثاني من نفس الكتاب

- 1) Le Vocabulaire Dans La Question des Parentés de Langue, pp. 44-46.
 - 2) Sur Le Degré De Précision Qu'Admet La Définition De La Parenté Linguistique, pp. 47 - 52.
- Jean Perrot : op. cit.

ب - المصادر الفرنسية

- 1) Dauzat, Albert :
La Géographie Linguistique.
Paris, 1922.
- 2) De Saussure, Ferdinand :
Cours de Linguistique Générale.
Paris — Lausanne 1916 ;
Quatrième édition, Payot, Paris, 1949.
- 3) Descœudres, A. :
Le Développement de l'enfant, de deux à sept ans ; Delachaux &
Niestlé, Neuchatel & Paris, 1946.
- 4) Grégoire, A. :
L'Apprentissage du Langage, les deux premières années ;
Alcan, Paris, 1937.
- 5) Grégoire, A. :
L'Apprentissage du Langage, la 3^{ème} année et les années suivantes ;
Alcan, Paris, 1947.
- 6) Guillaume, P. :
L'Imitation chez l'Enfant ;
Presses Universitaires de France, Paris, 1950.
- 7) Meillet, Antoine :
Linguistique Historique Et Linguistique Générale.
(Collection Linguistique Publiée Par La Société De Linguistique De
Paris — VIII) Tome I, 1921, nouv. tirage,
Paris, Edouard Champion, 1948.
- 8) Meillet, Antoine :
Linguistique Historique Et Linguistique Générale. Tome II ;
1938, Nouvean Tirage, Paris, Librairie C. Klincksieck 1952.
(Collection Linguistique Publiée Par La Société De Linguistique De
Paris).
- 9) Perrot, Jean :
La Linguistique.
Ire édition, Presses Universitaires De France, Paris 1953 (Que
Sais-Je? 570).

- 20) Malinowski, Bronislaw :
Supplement to : The Meaning of Meaning, by C.K. Ogden and
I.A. Richards.
- 21) McCarthy, D. :
The Language Development of the Pre-School Child.
University of Minnesota Press, U.S.A., 1929.
- 22) Sapir, Edward :
Language, an Introduction to the Study of Speech.
New York, Harcourt, Brace and Company, 1921.
- 23) Schlauch, Margaret :
The Gift of Tongues
London, George Allen and Unwin Ltd., Third Impression 1949.
- 24) Seth & Guthrie :
Speech in Childhood.
Oxford University Press, 1935.
- 25) Shaw, Bernard :
Pygmalion.
Penguin ed., 1949
- 26) Shirley, Mary :
The first two years, a study of twenty five babies.
The University of Minnesota Press, U.S.A., 1933.
- 27) Sommerfelt, Alf :
Recent Trends in General Linguistics ; "Diogenes", Number 1,
English Edition p.p. 64-70 (A quarterly publication of the Interna-
tional Council for Philosophy and Humanistic Studies, Unesco.)
- 28) Stein, L. :
The Infancy of Speech and the Speech of Infancy ; Methuen & Co.,
London, 1949.
- 29) Stern, W. :
Psychology of early child hood up to the sixth year of age ; G. Allen
& Unwin Ltd., London, 1924.
- 30) Sturtevant, E.H. :
Introduction to Linguistic Science.
- 31) Sweet, Henry :
A New English Grammar
Oxford, 1892-98.

- 10) Piaget, J. :
Le Langage et la Pensée chez l'Enfant ; Delachaux & Niestlé,
Neuchatel & Paris 1923.
- 11) Warburg, Walter V. :
Problèmes Et Méthodes De La Linguistique.
Traduit de l'allemand par Pierre Maillard.
1re édition, Presses Universitaires De France, Paris, 1946.

٥ - المصادر العربية

(١) ابن منظور الأفریقی (جمال الدين بن مكرم)
لسان العرب
المطبعة الأميرية - بولاق - مصر

(٢) أحمد شوقي :

الشوقيات

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

الجزء الأول ١٩٥٣ - الجزء الرابع طبعة ثانية مكمل ١٩٥١ .

(٣) أمية بن أبي الصلت الثقفي :

ديوان أمية بن أبي الصلت .

جمع بشير يموت ، بيروت ، المطبعة الوطنية سنة ١٩٣٤

(٤) تمام حسان :

مناهج البحث في اللغة

ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة الرسالة - القاهرة ١٩٥٥

(٥) صالح الشماخ :-

اللغة عند الطفل من الميلاد الى السادسة

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف ، مصر سنة ١٩٥٥ وهو ضمن سلسلة « منشورات

جامعة علم النفس التكاملي » - وهو الرسالة التي نال بها صاحبها درجة

الماجستير ، قسم الفلسفة كلية الآداب ، جامعة القاهرة

(٦) عبد الرحمن أيوب (دكتور) :

اللغة بين الفرد والمجتمع

وهو تعريب بتصريف لكتاب أوتو يسيرس Mankind, Nation...etc.
ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية - مطبعة لجنة البيان العربي -
القاهرة ١٩٥٤

(٧) علي عبد الواحد وافي (دكتور) :

علم اللغة

الطبعة الثانية - مزيده ومنقحة - القاهرة ١٩٤٤ الناشر مكتبة النهضة
المصرية - مطبعة الاعتماد بمصر

(٨) علي عبد الواحد وافي (دكتور) :

نشأة اللغة عند الانسان والطفل

الطبعة الأولى - الناشر دار الفكر العربي مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٧

(٩) عمر بن الفارض :

ديوان ابن الفارض

نشر وطبع البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٣

(١٠) فندريس ، ج :

اللغة

تعريب الأستاذين عبد الحميد الدواخلي وعبد القصاص لكتاب :

Vendryes, J : Le Langage, Introduction Linguistique à l'Histoire,
(1ère ed., Paris 1923).

نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، طبع مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٥٥

(١١) محمود السمران (دكتور) :

الصناعة الشعرية في العصر الجاهلي من حيث الموسيقى وبنية القصيدة .

رسالة ماجستير قدمت الى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٧ مكتوبة

على الآلة الكاتبة ومحفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية .

معجم المصطلحات

(A)

Activity	نشاط
Human Activity	النشاط الانساني
Action	فعل (عمل)
Reflex Action	عمل (فعل) انعكاسي
Social Action	العمل (الفعل) الاجتماعي
Voluntary Action	عمل (فعل) ارادي
Alphabet	الأبجدية ؛ الألف باء
Analogy	القياس
Linguistic Analogy	القياس اللغوي
Anthropology	الأنثروبولوجيا
Social Anthropology	الأنثروبولوجيا الاجتماعية
Aphasia	أفازيا (الحبسة العقلية)
Autonomy of Linguistics	استقلال علم اللغة

(B)

Babbling (Cooing ; Crowing)	الباباة
Behaviour	سلوك
Human Behaviour	السلوك الانساني
Choric Behaviour	السلوك الجماعي
Linguistic Behaviour	السلوك اللغوي
Speech Behaviour	السلوك الكلامي
Biology	علم الأحياء (البيولوجيا)
Biological	بيولوجي
Brachycephalic (=round-headed)	مستدير الرأس

(C)

Clinical	كلينيكي
Communication	توصيل (اتصال)

Communion	تشارك
Comparative	مقارن
Comparative Method	المنهج المقارن
Comparative Study	الدراسة المقارنة
Concept	تصور
Conscious	واع
Consciousness	وعي
Consonant	صامت (صوت) ؛ الجمع صوامت أو صامته
Labial Consonant	صامت شفوي
Cooing (Babbling)	الباباة (انظر)
Crawling	الحبو
Crowing (Babbling)	الباباة (انظر)

(D)

Deaf-Mutes	الصم البكم
Descriptive	وصفي
Descriptive Study	الدراسة الوصفية
Descriptive Method	المنهج الوصفي
Desire	رغبة
Development	نمو - تطور
Diacronic (Diachronistic)	حركي ؛ متحرك
Dialect	لهجة
Class-Dialect	لهجة طائفية ؛ لهجة طبقية
Dialect-Splitting	تقسيم لغة في لهجات
Dolichocephalic (=long-headed)	مستطيل الرأس
Dual	مثنى
Dynamic (see: Historical; Diacronic)	تطوري

(E)

Emotion	انفعال
---------	--------

Individualist	متفرد
Infrastructure	البنية السفلى
Institution	نظام (من النظم الاجتماعية)
Intellectual	عقلي (ذهنى)
Integration	تكامل
Integrative Method	المنهج التكاملى

(L)

Language	اللغة
Language Disorders	الاضطرابات الكلامية
Common Language	اللغة العامة ؛ اللغة المشتركة
Dead Language	لغة ميتة
Little Language	اللغة الصغيرة
Living Language	لغة حية
Secret Language	اللغة (اللهجة) السرية ؛ الكلام السرى ؛ « لغة (كلام) اخارجين على سلطة المجتمع »
Undeveloped Language	لغة متخلعة
Linguist	نالم لغوى
Linguistic	لغوى (صفة)
Linguistic Change	التغير اللغوى
Linguistic Development	التطور اللغوى
Linguistic Family	العائلة اللغوية
Linguistic Parenthood	الأبوة بين اللغات

General Linguistics	علم اللغة العام
Logic	منطق
Logical	منطقى
Logical Instrument	أداة منطقية
Logician	عالم من علماء المنطق (الجمع : مناطقة)

Emotional	انفعالى
Endocrine Organs	الغدد الصم (الغدد المفرزة للهرمونات)
Experience	تجربة
Expression	تعبير
Facial Expression	التعبير بلامح الوجه
Hand Expression	التعبير اليدوى
Ethnology	اثنولوجيا
Ethnological	اثنولوجى

(F)

Feeling	شعور
Function	وظيفة
Social Function	وظيفة اجتماعية
Functional	وظيفى

(G)

Genetics	علم الوراثة
Gesture	إشارة

(H)

Historical	تاريخى
Historical Method	المنهج التاريخى
Historical Study	الدراسة التاريخية
Homophones	الكلمات المتفقة صوتا المختلفة معنى (أى التى بينها «جناس تام»)

(I)

Idea	فكرة (الجمع : أفكار)
Imitation	التقليد
Imparting	نوصيل (نقل)
Impersonal	غير شخصى
Individual	فرد

(P)

Person	شخص
Personality	شخصية
Philosophical	فلسفى
Phonetics	علم الأصوات اللغوية
Phonetic, Phonetical	صوتى (صوتية)
Phonetician	دالم الأصوات اللغوية
International Phonetic Alphabet	الألفباء الصوتية الدولية
Preposition	الحرف (من أقسام الكلام)
Psychic	نفسى

(R)

Reduplication	التضعيف
Reflection	تأمل

(S)

Screaming	الصياح
Semantics	(علم) الدلالة
Semantic Shifts	التغيرات الدلالية
Sensation	إحساس
Sentiment	عاطفة
Society	مجتمع
Social	اجتماعى
Social Fact	الظاهرة الاجتماعية
Social Relations	العلاقات الاجتماعية
Sound	صوت
Speech	الكلام
Speech Community	الجماعة الكلامية
Speech Defects	(الجماعة ذات اللغة الواحدة) العيوب الكلامية

(M)

Mathematics	الرياضة
Mathematical	رياضى
Mathematical Relations	العلاقات الرياضية
Meaning	المعنى
Study of Meaning (see: Semantics)	دراسة المعنى
Mechanical	آلى
Mentality	عقلية
Metaphor	المجاز
Metaphorically	مجازاً ؛ مجازياً
Modifier	مغير
Monologue	مونولوج (الكلام الانفرادى)
Monosyllable	الكلمة أحادية المقطع (= الكلمة المكونة من مقطع واحد)
Mood	هيئة الفعل
Morpheme	عامل الصيغة (= دال النسبة)
Muscle	عضل
Muscular	عضلى
Mutilation	الاختصار أو «القطع»

(N)

Negation	النفى
Nervous System	الجهاز العصبى
Neurology	علم الأعصاب
Nursery stage	مرحلة الهد

(O)

Object	موضوع
--------	-------

Voice	(١) الجهر (٢) صوت الإنسان (الصوت الطبيعي)
Voiced	(صوت) مجهور
Voiceless	(صوت) مهموس
Vowel	صائت (صوت) الجمع «صائنه» أو «صوائت»
Single Vowel	صائت مفرد

Speech-Functions	الوظائف الكلامية
Types Speech-Functions	أنواع الوظائف الكلامية
Speech-Organs	أعضاء النطق
Speech-Sound	الصوت الكلامي
Underworld Speech (Secret Language)	لغة الخارجين على سلطة المجتمع اللغة (اللهجة) السرية أو الكلام السري
Static	ثابت ؛ حال الثبات
Structure	بنية
Linguistic Structure	البنية اللغوية
Social Structure	البنية الاجتماعية
Superstructure	البنية العليا
Stylistics	دراسة (علم) الأسلوب
Syllable	مقطع
Symbol	رمز
Synchronic (Synchronistic)	سكوني ؛ ساكن ؛ استقرار ؛ مستقر ؛ حال الاستقرار
Syntax	نظم

(T)

Taboo	الكلام الحرام
Talking	التكلم (الكلام) ؛ التحدث
Talking to one's self	تحدث الإنسان نفسه ؛ (المنولوج)
Tense	ضمن الفعل
Thought	الفكر
Tone	نغمة
Transmission	نقل

(V)

Verbal Action	الحدث (النص) الكلامي
Non-Verbal Actions	الأحداث غير الكلامية

صواب الخطأ

الواقع في مقال «اللفة والجمع»

صوابه	الخطأ	س	ص
ص ٤٥-٤٢ Comparative a	ص ٦-١ Comparative a a	٢ هامش الأخير	٧٩ ٨٠
في التخلص بدلاً من Schlauch	من التخلص بدلاً Schlauch	٤ من أسفل ٦ من أسفل الأخير	٨٢ ٩١ ٩٢ ١٠١
تمتد	يمتد	٩	١٠٩
مؤنثة	مؤنثة	٢	١١٤
أن الله	الله أنه	٩	١١٥
الأخبار	الأخبار	١٠	١١٧
Schlauch	Schlauch	١ هامش	١٢١
النبي	النبي	١٠	١٢٥
النبي	النبي	١٢	١٢٥
بمسم	بمسم	١٢	١٢٨
المستند	المستند	٤ من أسفل	١٣١
تسقطوا	تسقطوا	٧	١٣٤
الحى	الحى	٦ من أسفل	١٣٤
للتنبؤ	للتنبؤ	١٠	١٣٩
أنه إشارة	إشارة	٣ من أسفل	١٥٠
خطاب	خططاب	٨ ٣ من أسفل	١٥٢
وعنيا وقضيا	وعنيا	الأصل	١٥٢

صواب الخطأ « بنية »

ص	س	الخطأ	صوابه
١٥٤	١٥	فيها	فيهما
١٥٥	٣ هامش	أذا ناك	أذا ناك
١٥٦	٢	قالو	قالوا
١٥٦	٦	جزاء	جزاء
١٥٨	الأخير	الخدم	الخير
١٦٠	٢	وسما	ومما
١٦٢	١٢	لرجبا	لرجا
١٦٢	٣ من أسفل	بالخروف	بالحرف
١٦٥	٣ من أسفل الأصل	اللغوين	اللغوين
١٦٥	٦ هامش	Languages	Languages
١٦٦	٣	الحاضر	الحاضر
١٧١	١	العثمانيين	العثمانيين
١٧٧	٧ من أسفل	Nouveau	Nouveau
١٧٧	٦ من أسفل	Publie	Publie
١٨٢	٧ من أسفل	Linguistic	Linguistic
١٨٦	٢	Types of	Types of
١٨٦	٨ من أسفل	(المنولوج)	(المنولوج)

سيرة السنوسي الكبير

نقد المصادر وضرورة إنشاء مجموعة

لحفظ تراث الاستاذ الامام السنوسي

— ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م —

— ١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ —

للككتور محمد عبد الهادي شعير

المراد بنقد المصادر هو معرفة طبيعتها بحسب القواعد المنهجية ، وليس المراد بطبيعة الحال نقض المصادر وتجريحها ، وبدل النظر الاول لمصادر التاريخ السنوسي في عهد مؤسسه على أننا لا نزال نحتاج الى الاستكثار من المصادر التي أهملت والى جمعها نصياتها من الضياع . وما أجدرنا — وقد ثبت أن الحركة السنوسية حققت بعض أهدافها دون جدال — أن نكف على جمع تراثها العلمي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني : فنعمل على صيافته من الضياع . وهذا واجب مفروض على جيلنا لسبيين : أولهما أن كل بيئة مثقفة لا تكون كذلك بحق ولا تستطيع أن تشعر بعزتها الثقافية الا اذا حفظت ماضيها ، والسبب الثاني هو احساسنا أن أجيالنا لا تزال تحس الى اليوم أنها بحاجة الى هدى المؤسس الاول للسنوسية ، ولا يزال هذا الاحساس قائما لدى أهل البلاد جميعا ولدى الفكرين من رجال الإصلاح في أرجاء العروبة كلها .

وحفظ المصادر عمل أساسي من أعمال المؤرخين ، يكاد يكون العمود الفقري للدراسة التاريخية ، ولا شك أن التاريخ اذا ضاعت مصادره يتحول الى قصص لا قيمة له أو الى أخبار مقاربة قد تكون راجحة ولكنها لا تكون دقيقة .

وكذلك تقضي قوانين المناهج العلمية باعتبار المصادر السند الذي يصح بصحته الخبر أو يعتل بعلته .

فالخدمة الكبرى التي يستطيع المؤرخون اسداءها هي أن يحفظوا آثار الماضي ووثائقه وسجلاته للأجيال التالية ، ومن الخطأ الاستهانة بأمر هذا الحفظ لأنه